الفصل الأول

ابن كثير، عصره، صلته بمدرسة ابن تيمية

يتناول هذا الفصل في أربعة مباحث، حياة ابن كثير حياته وعصره. والتطورات السياسية والاجتماعية التي عاصرها ابن كثير وأثرها فيه. والحياة العلمية في بلاد الشام وأثرها في صقل فكر ابن كثير. والعلاقة بين الحافظ ابن كثير وابن تيمية وتلميذه ابن القيم والمزي.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

مقدمة:

من المسلم به أن قيمة أي علم وأهميته إنما تقاس بأهمية المعلوم، والغرض من علمه، وبمقدار حاجة العباد إلى ذلك العلم وضرورته إليهم، ولاشك أن علوم الشرع هي أجلّ العلوم على الإطلاق؛ وذلك لتعلّقها بأشرف موضوع قدراً وأعلاه مكانة، وأحسنه نظاماً، ألا وهو شرع الله المطهر الحنيف الذي رضيه الله – تعالى- لعباده فقال جل ذكره: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾[1].

ومن جملة هذه العلوم علم التفسير – أي تفسير القرآن العظيم – فهو من أجلّ علوم الشريعة وأرفعها قدراً، إذ هو أشرف العلوم موضوعاً وغرضاً وحاجة إليه؛ لأن موضوعه كلام الله – تعالى – الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة، ولأن الغرض هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية بفهم كلام الله – تعالى – على منهج السلف – رحمهم الله – ومن ثم العمل بمقتضى ذلك الفهم. ومن العلماء الذين قدموا للإرث الإسلامي الكثير في علم التفسير وفق هذا الفهم الصحيح، الإمام الحافظ ابن كثير، صاحب تفسير القرآن العظيم، والذي سيكون محل الدراسة في هذا الفصل.

1. القرآن الكريم. سورة المائدة.5 :3 .

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

المبحث الأول

ابن كثير حياته – عصره

من العلماء الذين انبروا لتفسير القرآن العظيم، وفق الأسُس التي تقوم على تتّبع مناهج السلف، ونقل أقوالهم، مع البيان في مواضعه وعند الحاجة إليه، وعدم التعصب لرأي أحد، إنما الأخذ بما وافق الحق والصواب ولو خالف في ذلك الشيوخ والأقران، الإمام الحافظ إسماعيل بن كثير – رحمه الله تعالى – الذي سأتناول في المبحث التالي – بمشيئة الله تعالى– نسبه، علمه، شيوخه، تلاميذه، مؤلفاته، وفاته.

أولاً نسبه:

قال ابن تغري:" هو أبو الفداء إسماعيل بن الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير القرشي الشافعي"[2]. وقال ابن العماد الحنبلي:" الحافظ الكبير عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع البصروي ثم الدمشقي الفقيه الشافعي ولد سنة سبعمائة[3]. وقال السيوطي:" الإمام المحدث الحافظ ذو الفضائل عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير بن ضوء بن كثير القيسي البصروي. ولد سنة سبعمائة وسمع الحجار والطبقة وأجاز له الواني والختني وتخرج بالمزي ولازمه وبرع. له التفسير الذي لم يؤلف على نمطه مثله والتاريخ وتخريج أدلة التنبيه وتخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب وشرع في كتاب كبير في الأحكام لم يتمه ورتب مسند أحمد على الحروف وضم إليه زوائد الطبراني وأبي يعلى وله مسند الشيخين وعلوم الحديث وطبقات الشافعية وغير ذلك[4]. ولد بقرية من أعمال مدينة بصرى سنة 701[5].

---

2 . ابن تغري النجوم، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بردي الأتاكي ت 874. *الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*. 1413هـ 1992م دار الكتب العلمية. بيروت – لبنان. ط1 . 11/ 98.

3. ابن العماد الحنبلي، شهاب الدين أبي الفلاح ت1089هـ. *شذرات الذهب في أخبار من ذهب*. تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط. 1406هـ1986م دار ابن كثير. دمشق. بيروت. ط1. 397/8.

4 . السيوطي، جلال الدين 911هـ طبقات الحفاظ .د.ت. د.ط. 112/1.

5 . الشوكاني، محمد بن علي. *البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع*. د.ت .د.ط. 1 /143.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

وقال ابن حجر[6]. وهو من أقرب الناس لحياة ابن كثير من المؤرخين قال في" الدرر الكامنة": ولد سنة سبعمائة أو بعدها بيسير "[7]، وقال عن نفسه في كتابه البداية والنهاية: وفيها – أي سنة احدي عشر وسبعمائة– ولد كاتبه إسماعيل بن عمر ابن كثير القرشي المصري الشافعي عفا الله عنه[8].

ثانيا: شيوخه :

انصرف ابن كثير . رحمه الله . وهو في دمشق إلى طلب العلم، وتحصيل المعارف، والتقى مع علمائها– ومشايخها. وجاء في مقدمة تفسيره " نشأ الحافظ ابن كثير في بيت علم ودين، فأبوه عمر بن حفص بن كثير أخذ عن النواوي والفزاري وكان خطيب قريته، وتوفى أبوه وعمره ثلاث سنوات أو نحوها، وانتقلت الأسرة بعد موت والد ابن كثير إلى دمشق في سنة (707 هـ)، وخلف والده أخوه عبد الوهاب، فقد بذل جهدًا كبيراً في رعاية هذه الأسرة بعد فقدها لوالدها، وعنه يقول الحافظ ابن كثير: "وقد كان لنا شقيقاً، وبنا رفيقاً شفوقًا، وقد تأخرت وفاته إلى سنة (750 هـ) فاشتغلت على يديه في العلم فيسر الله منه ما تيسر وسهل منه ما تعسر"[9]، وهناك جملة من شيوخه الذين تتلمذ عليهم فمنهم:

1–شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية، رحمه الله.

2–الحافظ أبو الحجاج يوسف المزي، رحمه الله.

3–الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، رحمه الله.

4–الشيخ أبو العباس أحمد الحجار الشهير بـ "ابن الشحنة"

5–الشيخ أبو إسحاق إبراهيم الفزاري، رحمه الله.

---

6. أمير المؤمنين في الحديث حافظ العصر شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد الشهير بابن حجر. ت 852هـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب. ابن العماد الحنبلي. 269/7.

7. ابن حجر. أحمد بن علي العسقلاني ت 852هـ. *الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة*. دار الجيل.1414هـ .1993م .د.ط. 374/1.

8. ابن كثير. أبو الفداء إسماعيل ت 774 هـ. 1420 هـ 2000م. *البداية والنهاية*. بيروت. لبنان: دار الكتب العلمية. ط2. 14 /25.

9. تفسير ابن كثير 12/1.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

6-الحافظ كمال الدين عبد الوهاب الشهير بـ "ابن قاضي شهبة".

7-الإمام كمال الدين أبو المعالي محمد بن الزملكاني، رحمه الله.

8-الإمام محي الدين أبو زكريا يحي الشيباني، رحمه الله.

9-الإمام علم الدين محمد القاسم البرزالي، رحمه الله.

10-الشيخ شمس الدين أبو نصر محمد الشيرازي، رحمه الله.

11-الشيخ شمس الدين محمود الأصبهاني، رحمه الله.

12-عفيف الدين إسحاق بن يحي الآمدي الأصبهاني، رحمه الله.

13-الشيخ بهاء الدين القاسم بن عساكر، رحمه الله.

14-أبو محمد عيسى بن المطعم، رحمه الله.

15-عفيف الدين محمد بن عمر الصقلي، رحمه الله.

16-الشيخ أبو بكر محمد بن الرضي الصالحي، رحمه الله.

17-محمد بن السويدي، بارع في الطب.

18-الشيخ أبو عبد الله بن محمد بن حسين بن غيلان، رحمه الله.

19-الحافظ أبو محمد عبد المؤمن الدمياطي، رحمه الله.

20- موسى بن علي الجيلي، رحمه الله.

21-جمال الدين سليمان بن الخطيب، قاضي القضاة.

22-محمد بن جعفر اللباد، شيخ القراءات.

23-شمس الدين محمد بن بركات، رحمه الله.

24-شمس الدين أبو محمد عبد الله المقدسي، رحمه الله.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

25-الشيخ نجم الدين بن العسقلاني.

26-جمال الدين أبو العباس أحمد بن القلانسي، رحمه الله.

27-الشيخ عمر بن أبي بكر البسطي، رحمه الله.

28-ضياء الدين عبد الله الزربندي النحوي، رحمه الله.

29-أبو الحسن علي بن محمد بن المنتزه، رحمه الله.

30-الشيخ محمد بن الزراد، رحمه الله[10].

ثالثاً:فضله ومكانته العلمية:

قال عنه المؤرخ شمس الدين الذهبي ت (748هـ):" له عناية بالرجال والمتون والتفقه، خرّج، وناظر، وصنّف،وفسّر، وتقدّم"[11]. وقال تلميذه الحافظ أبو المحاسن الحسيني ت (765هـ) : "صاهر شيخنا أبا الحجاج المزي فأكثر، وأفتى ودرس وناظر، وبرع في الفقه والتفسير والنحو وأمعن النظر في الرجال والعلل"[12]. وقال العلامة ابن ناصر الدين ت (842 هـ) : "الشيخ الإمام العلامة الحافظ عماد الدين، ثقة المحدثين، عمدة المؤرخين، علم المفسرين"[13]. وقال عنه ابن حجر ت (852هـ):" كان فقيهاً عارفاً فاضلاً زاهداً "[14]. وقال عنه ابن تغري ت (874):" قلت ومن مصنفاته تفسير القرآن الكريم في عشر مجلدات وكتاب طبقات الفقهاء ومناقب الإمام الشافعي رضي الله عنه والتاريخ المسمى بالبداية والنهاية جدا فيه حذوا بن الأثير رحمه الله في الكامل والتاريخ أيضا في عشرة مجلدات وخرج أحاديث مختصر ابن الحاجب وكتب على البخاري ولم

---

10. نفسه 12.14/1.

11 . الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد. ت 748هـ . 1419هـ. 1998م. *تذكرة الحفاظ*. دراسة وتحقيق: زكريا عميرات. بيروت. لبنان: دار الكتب العلمية.د.ط. 201/4.

12 . نفسه.201/4.

13 . ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي 700 .774 هـ .*تفسير ابن كثير*. المحقق : سامي بن محمد سلامة. الناشر دار طيبة للنشر والتوزيع. 1420هـ . 1999م. ط2. 17/1.

14 . ابن حجر، أحمد بن على العسقلاني. د.ت. *الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة*. 466/1.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

يكمله رحمه الله تعالى"[15]. وقال عنه السيوطي ت (911هـ):" له التفسير الذي لم يؤلف على نمطه مثله"[16].

وقال شهاب الدين الحنبلي ت (949هـ):" كان كثير الاستحضار، قليل النسيان، جيد الفهم، سمع وجمع وأطرب الأسماع بالفتوى وشنّف، وحدّث، وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد، واشُتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ، والحديث، والتفسير"[17].

وقد أثنى عليه من العلماء المتأخرين كأمثال الدكتور محمد الذهبي في كتابه التفسير والمفسرون: " كان ابن كثير على مبلغ عظيم من العلم، وقد شهد له العلماء بسعة علمه، وغزارة مادته، خصوصاً في التفسير الحديث والتاريخ"[18].

رابعاً تلاميذه:

1- الحافظ علاء الدين بن حجي الشافعي، رحمه الله.

2- محمد بن محمد بن خضر القرشي، رحمه الله.

3- شرف الدين مسعود الأنطاكي النحوي، رحمه الله.

4- محمد بن أبي محمد بن الجزري، شيخ علم القراءات، رحمه الله.

5- ابنه محمد بن إسماعيل بن كثير، رحمه الله.

6- الإمام ابن أبي العز الحنفي، رحمه الله.

---

15 . ابن تغري، جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتاكي ت 874هـ. *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*. 124/11.

16. السيوطي، الحافظ جلال الدين عبدالرحمن ت911هـ. 1393هـ 1973م. *طبقات الحفاظ*. تحقيق على محمد عمر. الناشر مكتبة وهبة 530.

17 . العماد الحنبلي، شهاب الدين بن العماد ت 1089هـ .1413هـ . 1992م . *شذرات الذهب في أخبار من ذهب*. تحقيق وتعليق عبدالقادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط. دمشق. بيروت: دار ابن كثير. د.ط. 397/8، 398.

18 .الذهبي، محمد حسين .د.ت. *التفسير والمفسرون*. د.ط.243/1.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

7- الحافظ أبو المحاسن الحسَيني، رحمه الله[19].

خامساً مؤلفاته:

كان ابن كثير- رحمه الله - ممن توفرت فيهم مؤهلات التأليف، والتصنيف بدرجة عالية، فأنس به، وبذل فيه الجهد الكبير، وأعطاه ثمين الوقت، وأكبّ على التدقيق والتمحيص، وقدم للبشرية إنتاجاً غزيراً ثرياً، وكتباً نافعة مفيدة، أصبحت مرجعاً لطلاب العلم والمعرفة في عصره، واستمرت طوال القرون السبعة التي مضت ولا تزال المصدر الرئيس في تخصصاتها إلى اليوم والمستقبل.

ومؤلفات الحافظ ابن كثيرة جداً ولعلّ من أجلّها وأشهرها :

في علوم القرآن:

1- تفسير القرآن العظيم وهو مطبوع.

2- فضائل القرآن: وهو ملحق بالتفسير في النسخة البريطانية، والنسخة المكية، وقد طبعت مفردة بتحقيق الأستاذ محمد الثنا في مؤسسة علوم القرآن ببيروت.

في السنة وعلومها:

3-أحاديث الأصول.

4-شرح صحيح البخاري قال ابن تغري:" لم يكمله"[20].

5-التكميل في الجرح والتعديل ومعرفة الثقات والمجاهيل: منه نسخة بدار الكتب المصرية برقم (24227) في مجلدين.

6-اختصار علوم الحديث: نشر بمكة المكرمة سنة (1353 هـ) بتحقيق الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة، ثم شرحه الشيخ أحمد شاكر، رحمه الله، وطبع بالقاهرة سنة (1355 هـ).

---

19 . تفسير ابن كثير 14/1.

20. النحوم الزاهرة 120/11.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

7- جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سنن: منه نسخة بدار الكتب المصرية برقم (184) حديث، ونشره مؤخرًا الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي، وطبع بدار الكتب العلمية ببيروت.

8- مسند أبي بكر الصديق، رضي الله عنه.

9- مسند عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: نشره الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي، وطبع بدار الوفاء بمصر.

10- الأحكام الصغرى في الحديث.

11-تخريج أحاديث أدلة التنبيه في فقه الشافعية.

12-تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب: طبع مؤخرًا بتحقيق الكبيسي، ونشر في مكة.

13-مختصر كتاب "المدخل إلى كتاب السنن" للبيهقي.

14- جزء في حديث الصور.

15- جزء في الرد على حديث السجل.

16- جزء في الأحاديث الواردة في فضل أيام العشرة من ذي الحجة.

17- جزء في الأحاديث الواردة في قتل الكلاب.

18- جزء في الأحاديث الواردة في كفارة المجلس.

في الفقه وأصوله:

19-الأحكام الكبرى.

20-كتاب الصيام.

21-أحكام التنبيه.

22-جزء في الصلاة الوسطى.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

23-جزء في ميراث الأبوين مع الإخوة.

24-جزء في الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها.

25-جزء في الرد على كتاب الجزية.

26-جزء في فضل يوم عرفة.

27-المقدمات في أصول الفقه.

في التاريخ والمناقب:

28-البداية والنهاية: مطبوع عدة طبعات في مصر وبيروت.

29-جزء مفرد في فتح القسطنطينية.

30-السيرة النبوية: مطبوع باسم الفصول في سيرة الرسول بدمشق.

31-طبقات الشافعية: منه نسخة في شستربيتي بإيرلندا، وقد طبع مؤخرًا في مصر.

32-الواضح النفيس في مناقب محمد بن إدريس: منه نسخة في شستربيتي بإيرلندا.

33-مناقب ابن تيمية.

34-مقدمة في الأنساب[21].

سادساً وفاته ورثاؤه: في يوم الخميس السادس والعشرين من شهر شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة توفي الحافظ ابن كثير بدمشق، ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية، رحمه الله. وقد قيل في رثائه، رحمه الله :

لفقدك طلاب العلوم تأسفوا ... وجادوا بدمع لا يبير غزير

ولو مزجوا ماء المدامع بالدما ... لكان قليلاً فيك يا بن كثير[22].

---

21 . نفسه.16/1.

22. نفسه. 12/1.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

المبحث الثاني

التطورات الاجتماعية والسياسية و التي عاصرها ابن كثير وأثرها فيه

كان للتطورات الاجتماعية والسياسية – من حروب واضطرابات وقلاقل سياسية، ونزعات طائفية، ومفاسد دينية، وتدهور اجتماعي– ودخول التتار بلاد المسلمين في بغداد والشام، وما حصل بمصر وغيرها من بلاد المسلمين أثرها الكبير على الإمام الحافظ ابن كثير – رحمه الله — من هذه الجوانب.

وإذا أردنا أن نربط بين تلك الأحوال والتطورات التي حصلت في ذلك العصر والأثر الذي أشرنا إليه، فإنا سنعود قليلاً تاريخياً، للتحدث عن بدء دخول التتار وما أعقبه من أحداث، وأثار ذلك في الحافظ من الناحية الاجتماعية والسياسية؛ وإن كان بعضاً من هذه الأحداث سابقة لمولد الحافظ ابن كثير، إلا أن أثرها فيه كان كبيراً، فقد أفاد منها واستوعب دروسها جيداً، فكان يحذر المسلمين من هؤلاء المنافقين الذين يتربصون بالإسلام وأهله الدوائر، ويُبَيِّنُ خطرهم على الإسلام وأهله؛ بل وحارب الكثير من مفاسدها والتي سيرد ذكرها لاحقاً بإذن الله – تعالى–

فبعد أن دمّر التتار بغداد عاصمة الخلافة العباسية عام 656هـ، وبعد أن استولى هولاكو عليها، واستُبيحت بغداد، وقُتل الخليفة العباسي، وجُمعت الآلاف من كتب الإسلام وأحرقت وألقيت في نهر دجلة، إذ كان هدفهم في الدنيا هو التخريب والفساد لكل ما يقع تحت أيديهم، فألقى التتار بمجهود القرون الماضية في نهر دجلة،حتى تحول لون مياه نهر دجلة إلى اللون الأسود من أثر مداد الكتب،وحتى قيل أن الفارس التتري كان يعبر فوق المجلدات الضخمة من ضفة إلى ضفة أخرى، والحق أن هذه جريمة ليست في حق المسلمين فقط،بل في حق الإنسانية كلها التي حرمت هذا الميراث الكبير.وفي تلك الأثناء – أي وقت دخول هؤلاء المفسدون بغداد– اجتاز تيمورلنك بلاد الشام.يقول الحافظ ابن كثير في حوادث سنة ثمان وعشرين وستمائة:" قدمت التتار في هذه السنة إلى الجزيرة وديار بكر فعاثوا بالفساد يميناً وشمالاً، فقتلوا

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

ونهبوا وسبوا على عادتهم خذلهم الله- تعالى -يُفسدون ما قدروا عليه قتلاً ونهباً وأسراً، وتمزّق شمل جلال الدين[23] وتفرق عنه جيشه، فصاروا شذراً مذراً، وبُدلّوا بالأمن خوفاً، وبالعز ذلاً، وبالاجتماع تفريقاً، فسبحان من بيده الملك لا إله إلا هو. وانقطع خبر جلال الدين فلا يُدرى أين سلك، ولا أين ذهب، وتمكنت التتار من الناس في سائر البلاد لا يجدون من يمنعهم ولا من يردعهم، وألقى الله — تعالى - الوهن والضعف في قلوب الناس منهم، كانوا كثيراً يقتلون الناس فيقول المسلم: لا بالله، لا بالله، فكانوا يلعبون على الخيل ويُغنّون ويحاكون الناس لا بالله لا بالله، وهذه طامة عظمي وداهية كبرى، فإنا لله وإنا إليه راجعون"[24].

قال العماد الحنبلي في حوادث سنة ست وخمسين وستمائة:" ثم دخلت حينئذ التتار بغداد، وبذلوا السيف، واستمر القتل والسبي نحو أربعين يوماً، ولم يسلم إلا من اختفى في بئر أو قناة، وقُتل الخليفة رفساً، ويقال: إن هولاكو أمر بعدّ القتلى فبلغوا ألف ألف وثمانمائة ألف وكسر"[25].

وامتد شر التتار حتى بعد عصر الحافظ ابن كثير، فقد ذكر العماد الحنبلي في حوادث سنة خمس وتسعين وسبعمائة، فقال — رحمه الله-:" فيها عاث تمرلنك بالعراق، وخرّب بغداد، وتبريز، وشيراز، وغيرها، واتصل شرر فتنته إلى الشام، ووصل خبر ضرره إلى مصر، فارتاع كل قلب لما يحمى عنه، فإنه أوسع القتل والنهب والأسر ببغداد وماحولها ومادانها، وعاد إلى البصرة والحلة وغيرها، وأكثر النهب والتعذيب، ثم توجه نحو الشمال، فوصل ديار بكر، وعصت عليه قلعة تكريت فحاصرها من ذي الحجة إلى أن أخذها بالأمان في صفر سنة ست وتسعين"[26].

---

23. جلال الدين بن محمد بن خوارزم، آخر سلاطين الدولة الخوارزمية الذي استحوذ على بلاد خلاط وقتل من أهلها خلقاً كثيراً ونهب أموالاً كثيرة .البداية والنهاية حوادث سنة سبع وعشرين وستمائة.149/13.

24 . ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل. 1420 ه 2000م . *البداية والنهاية*.د.ط. 149/13 ،150.

25. العماد الحنبلي، شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي .1413ه1992م .*شذرات الذهب في أخبار من ذهب*.د.ط. 7/ 468، 469.

26 . نفسه. 576/8.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

ولعل من أهم أسباب التدهور الذي حصل للمسلمين كان بسبب التفرق وضعف الخلافة بسبب الشهوات والرغبات والصراعات، وترك أمر الخلافة وأمر الناس.

يقول السرجاني:" الناظر إلى الأرض في ذلك الوقت يجد أن القوى الموجودة كانت متمثلة في قوتين رئيسيتين: أما الأولى فهي أمة الإسلام. والمساحات الإسلامية في هذا الوقت كانت تقترب من نصف مساحات الأراضي المعمورة في الدنيا، كانت حدود البلاد الإسلامية تبدأ من غرب الصين وتمتد عبر آسيا وأفريقيا لتصل إلى غرب أوروبا حيث بلاد الأندلس، وهي مساحة شاسعة للغاية، لكن وضع العالم الإسلامي – للأسف الشديد – كان مؤلماً جدا فمع المساحات الواسعة من الأرض، ومع الأعداد الهائلة من البشر، ومع الإمكانيات العظيمة من المال والمواد والسلاح والعلوم،مع كل هذا إلا أنه كانت هناك فرقة شديدة في العالم الإسلامي، وتدهور كبير في الحالة السياسية لمعظم الأقطار الإسلامية،والغريب أن هذا الوضع المؤسف كان بعد سنوات قليلة من أواخر القرن السادس الهجري،حيث كانت أمة الإسلام قوية منتصرة متحدة رائدة، ولكن هذه سُنة ماضية: ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[27] ويمضي السرجاني في الحديث إلى أن يقول:" القوة الثانية في الأرض في أوائل القرن السابع الهجري كانت قوة الصليبيين. وكان المركز الرئيسي لهم في غرب أوربا حيث هناك لهم أكثر من معقل، وقد انشغلوا بحروب مستمرة مع المسلمين"[28]. ثم بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد لم يعد في العالم الإسلامي تجمع دولة، إلا دولة المماليك والتي حكمت مصر والشام والحجاز وأصبحت أقوى دولة في ذلك الوقت، بالإضافة إلى أنهم أعادوا الخلافة العباسية في مصر شكليًا ليضفوا الشرعية على حكمهم، وذلك عندما قام الظاهر بيبرس باستدعاء أحد أبناء العباسيين سنة (659 هـ) وعقد مجلسًا حافلاً أثبت فيه نسبه وأعلنه خليفة، ولكن بلا

---

[27]. القرآن الكريم. سورة آل عمران.3: 140.

[28] . السرجاني، راغب.1427هـ 2006م. *قصة التتار من البداية إلى عين جالوت*. مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة. القاهرة. ط1.ص9.13.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

خلافة حقيقية، فلم يكن له ولا لمن جاء بعده أي دور يذكر. إلا أنه وللإنصاف لم يوقف زحف التتار على مصر والشام والحجاز بانتصارهم الساحق في معركة "عين جالوت"[29] التي تُعد من أعظم معارك التاريخ الإسلامي إلا هم. ولهم أيادي بيضاء أخرى، ففي مجال العلوم والمعارف مثلاً حفل العصر المملوكي بأكبر عدد من المؤرخين الكبار فلم يجتمع مثل هذا العدد من عمالقة التاريخ في أي عصر من العصور ومنهم: الحافظ ابن كثير صاحب "البداية والنهاية"، وابن خلكان صاحب "وفيات الأعيان"، والإمام جلال الدين السيوطي صاحب "تاريخ الخلفاء"، وغيرهم كثير. والرحالة الشهير ابن بطوطة، والبحارة ابن ماجد. وفي مجال الطب نجد ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى. والعلامة المؤرخ ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع، ومن الجدير بالذكر أن المماليك قد نظموا دولتهم لتقوم بهذا الدور الحضاري والتاريخي الكبير، فقاموا بتنظيم الجيش والبحرية لمواجهة بقايا الصليبيين. ونظموا القضاء وطوروا فيه وفي الحسبة التي كانت تعاون القضاء وأيضًا ديوان النظر في المظالم لمحاسبة وغير ذلك مما بنوه.

الحالة الاجتماعية: لا شك أن كل مجتمع يتشكل ويُبنى على ظروف متنوعة تساهم في بنائه، فكانت الأوضاع في ذلك العصر وبسبب الحروب المتوالية والتي لم تترك للناس فسحة الاستقرار قد ترتب عليها مفاسد عظيمة، يذكر الحافظ ابن كثير ويصور المشهد قال:" عندما عزم هولاكو على غزو دمشق " انزعج الناصر – صاحب دمشق – لذلك، وبعثَ بحريمه وأهله إلى الكَرَك لِيُحَصِّنَهم بها، وخافَ أهل دمشق خوفاً شديداً – ولاسيما لَمَّا بلغهم أن التتار قد قطعوا الفرات – سافر كثير منهم إلى مصر في زمن الشتاء، فمات ناسٌ كثيرٌ منهم ونهبوا، وقد لُوحظ من جملة ما كان ظهور نزعات عديدة في هذه الفترة، وأبرزها نزعتان: النزعة الإباحية، والنزعة الزهدية، إذ مال قسم من الناس إلى شرب الخمر ولذائذ الدنيا، وشاع الطرب

---

[29]. وقعت معركة عين جالوت سنة ثمان وخمسين وستمائة هجرية، واتفق وقوعها في العشر الأواخر من رمضان من هذه السنة، وانتصر فيها المسلمون على التتار بعدما اقتتلوا قتالاً عظيماً، فهزمهم المسلمون هزيمة هائلة وقتل أمير المغول كتبغانوين وجماعة من بيته، وكانت النصرة ولله الحمد للإسلام وأهله. البداية والنهاية.13/255. 256 بتصرف.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

والغناء، كما سادت المجتمع ألوانٌ من الشركيات؛ كالتبرك بالأحجار والجمادات ونحو ذلك وانتشرت البدع وسادت في المجتمع في ذلك الوقت، كبدعة الوقيد في المسجد الأموي بدمشق في ليلة النصف من شعبان، وذلك أن الناس يشعلون في هذه الليلة في المسجد قناديل زيادة عما فيه، ويعتقدون أنهم إن لم يفعلوا ذلك في عام مات السلطان، مع إحياءِ هذه الليلة، وفي سنة 751هـ عام وفاة ابن القَيِّم – رحمه الله – بطل الوقيد بجامع دمشق، فلم يرد في وقيده قنديل واحد على عادة لياليه في سائر السنة ولله الحمد والمنة[30].

ومن هنا نلمح الارتباط الوثيق بين حالة البلاد الدينية، والحالة الاجتماعية؛ فإنَّ الفَهْمَ الصحيح للإسلام، والتطبيق السليم لأحكامه، والالتزامَ الصادقَ بتعاليمه، كل ذلك له أثر طيب على أفراد المجتمع، وعاداتهم وتقاليدهم؛ فيسود المجتمع الاستقرار والأمن، ويعُمُّه الخير والرخاءُ. وعلى العكس تماماً، فإن الانسلاخ من أحكام الدين وشرائعه، وتضييع تعاليمه وشعائره، من أهم أسباب شيوع الفوضى وعدم الاستقرار في المجتمع، وفساد الأخلاق، وضياع القِيَم.

وذكر الحافظ ابن كثير في حوادث سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة وفي أواخر ذي الحجة أموراً معاشية حصلت، فقال:" وفي أواخر هذا الشهر غلا السعر جداً وقل الخبز وازدحم الناس على الأفران زحمة عظيمة، وبيع خبز الشعير المخلوط بالزيوان والنقارة، وبلغت الغرارة بمائة ستة وثمانين درهماً، وتقلص السعر جداً حتى بيع الخبز كل رطل بدرهم، وفوق ذلك بيسير، ودونه بحسب طيبه ورداءته، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكثر السؤال وجاع العال، وضعف كثير من الأسباب والأحوال، ولكن لطف الله عظيم فإن الناس مترقبون مغلاً هائلاً لم يسمع بمثله من مدة سنين عديدة، وقد اقترب أوانه، وشرع كثير من البلاد في حصاد الشعير وبعض

30 . ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر774هـ. 1420هـ. 2000م. *البداية والنهاية*. د.ط. 39/14. بتصرف.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

القمح مع كثرة الفول وبوادر التوت، فلولا ذلك لكان غير ذلك، ولكن لطف الله بعباده، وهو الحاكم المتصرف الفعال لما يريد لا إله إلا هو[31].

الحالة السياسية:

كانت العلاقة السائدة بين السلاطين ورجال الدين في ذلك العصر، بين شد وجذب، وإن بدأ من سلاطين المماليك الحرص علي الدين ورجاله، وغيرة وحماس قد يستغربان، ولكنهم كانوا يعلمون أن رجال الدين هم سندهم بين الناس، ووسيلتهم إليهم، ويدهم التي تبطش أحياناً بالشعب أو ترفق به، ولهذا فإن الحالة السياسية لم تكن على وفاق أبداً بين السلطتين الدينية والأمنية، يذكر الحافظ ابن كثير شيئاً من ذلك فيقول:" وفيها –أي سنة سبع وثلاثين وسبعمائة– نفى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليفة وأهله وذويه، وكانوا قريباً من مائة نفس إلى بلاد قوص، ورتب لهم هناك ما يقوم بمصالحهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون[32]. وربما حدث النزاع لرغبة بعض رجال الدين وخاصة الحنابلة، في تطبيق حدود الشرع على المماليك أنفسهم، أو القيام بتنفيذ الحدود بأنفسهم، وليس عن طريق الدولة. وتبنّى هذا الاتجاه شيخ الإسلام ابن تيمية وجماعته، دون الرجوع إلى السلطة الأمنية، مما دُفع به إلى السجن في دمشق، وعاود الدعوة إلى هذا الانفلات عند مجيئه القاهرة، فسجن مرة ثانية، ثم ثالثة في دمشق، وظل مسجوناً حتى مات – رحمه الله – سنة ثمان وعشرون وسبعمائة.

ويذكر ابن كثير حادثة غريبة، ففي دمشق قام الفقراء بتحريض من العلماء سنة 758هـ ضد مرتادي الخمّارات، وتدخل نائب السلطان فمنعهم من التمادي في فعالهم. وبقي الضيق يملأ صدور الفقهاء لغشم المماليك وجهلهم وتهورهم وظلمهم وتصرفهم في الأمور علي غير مقتضي الشرع، واستمر الصراع الخفي بين

---

31. نفسه. 14/ 223.

32. نفسه 14/207.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

رجال الدين والمماليك برغم قشرة التحالف الظاهرية بينهم. ومن قبائح الأمراء أنهم لا يوقرون أهل العلم، ولا يعرفون لهم حقوقهم، وينكرون عليهم ما يرتكبون أضعافه. قال الحافظ ابن كثير في حوادث هذه السنة ما نصّه:" لما كان يوم الأربعاء الرابع والعشرين من رجب من هذه السنة نهدت جماعة من مجاوري الجامع بدمشق من مشهد علي وغيره، واتبعهم جماعة من الفقراء والمغاربة، وجاءوا إلى أماكن متهمة بالخمر وبيع الحشيش فكسروا أشياء كثيرة من أواني الخمر، وأراقوا ما فيها وأتلفوا شيئاً كثيراً من الحشيش وغيره، ثم انتقلوا إلى حكر السماق وغيرهم فثار عليهم من البارذارية والكلابرية وغيرهم من الرعاع فتناوشوا، وضربت عليهم ضربات بالأيدي وغيرهم، وربما سل بعض الفساق السيوف عليهم كما ذكر، وقد رسم ملك الأمراء لوالي المدينة ووالي البر أن يكونوا عضداً لهم وعوناً على الخمّارين والحشّاشة، فنصروهم عليهم، غير أنه كثر معهم الضجيج ونصبوا راية واجتمع عليهم خلق كثير، ولما كان في أواخر النهار تقدم جماعة من النقباء والخزاندارية ومعهم جنازير فأخذوا جماعة من مجاوري الجامع وضربوا بالمقارع وطيف بهم في البلد ونادوا عليهم: هذا جزاء من يتعرض لما لا يعنيه تحت علم السلطان، فتعجب الناس من ذلك وأنكروه حتى أنه أنكر اثنان من العامة على المنادية ضرب بعض الجند أحدهم بدبوس فقتله، وضرب الآخر فيقال إنه مات أيضاً فإنا لله وإنا إليه راجعون"[33]. ولقد انتشر في ذلك الوقت شيء من التعصب المذهبي، وأدى إلى كثير من الخلافات بين العلماء أنفسهم، فضلاً عن بقية الناس، حتى إن الجامع الأموي في دمشق كان يوجد به إمام لكل مذهب، ولكل إمام محراب، ويشير الحافظ ابن كثير – رحمه الله – إلى شيء من الاختلاف في الجامع، فيقول: "وأمر الكاملُ في يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة أئمة الجامع أن لا يصلي أحدٌ منهم المغرب سوى الإمام الكبير، لِمَا كان يقع من التشويش والاختلاف بسبب اجتماعهم في وقت واحد، وَلَنِعْمَ ما فعل، وقد فُعل

33. نفسه. 294/14.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

هذا في زماننا في صلاة التراويح، اجتمع الناس على قارئ واحد وهو الإمام الكبير في المحراب المقدم عند المنبر، ولم يبق به إمام يومئذ سوى الذي بالحلبية عند مشهد علي، ولو ترك لكان حسناً والله أعلم"[34].

وكانت هذه الخلافات تؤدي في بعض الأحيان إلى الشحناء والقطيعة بين العلماء، حتى أن السلطان كان يتدخل في ذلك للإصلاح بينهم، ويذكر ابن كثير – رحمه الله – موقفاً من هذه المواقف وكان حاضره فيقول: "وجلس نائب السلطة في صدر المكان، وجلسنا حوله، فكان أول ما قال :كنا نحن الترك وغيرنا إذا اختلفنا واختصمنا نجيء بالعلماء فيصلحون بيننا، فصرنا نحن إذا اختلفتِ العلماءُ واختصموا فمن يصلح بينهم؟ وشرع في تأنيبي من شنَّع على الشافعيّ بما تقدم ذكره من تلك الأقوال والأفاعيل التي كتبت في تلك الأوراق وغيرها، وأن هذا يشفي الأعداء بنا، وأشار بالصلح بين القضاة بعضهم من بعض فصمم بعضهم وامتنع، وجرت مناقشات من بعض الحاضرين فيما بينهم، ثم حصل بحث في مسائل ثم قال نائب السلطنة أخيراً: أما سمعتم قول الله – تعالى –: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾[35] فلانت القلوب عند ذلك وأمر كاتب السر أن يكتب مضمون ذلك في مطالعة إلى الديار المصرية، ثم خرجنا على ذلك انتهى والله أعلم"[36]. وفي حوادث سنة ست عشرة وسبعمائة يذكر الحافظ ابن كثير أنه:" وقعت فتنة بين الحنابلة والشافعية بسبب العقائد، وترافعوا إلى دمشق فحضروا بدار السعادة عند نائب السلطنة تنكز فأصلح بينهم، وانفصل الحال على خير من غير محاققة ولا تشويش على أحد من الفريقين، وذلك يوم الثلاثاء سادس عشر المحرم"[37]. وقد كانت العقائد المختلفة المخالفة لعقيدة أهل السنة منتشرة حينذاك أيضاً، وربما أدت إلى وقوع الخلاف والفتن، ولعله – رحمه الله – يشير بهذه الحادثة إلى الخلاف بين الأشعرية الذين كانوا جمهور الشافعية وقتئذ،

---

34. نفسه. 173/13.
35. القرآن الكريم. سورة المائدة 5: 95.
36. البداية والنهاية. 361/14.
37. نفسه. 86/14.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

وبين الحنابلة أهل الحديث والأثر، فالخلاف بينهم في ذلك الوقت معروف، والنزاع بينهم مضطرم، زاده اعتماد الحنابلة على النصوص في دراسة العقائد، واعتماد الأشاعرة على الاستدلال العقلي والبرهان المنطقي في دراستها.

وللحقيقة التاريخية وعلى الرغم من وجود مفاسد كثيرة، وصراعات واختلافات في ذلك العصر، فإنه كذلك كان عصراً مليئاً بالعلم والعلماء والمؤلفات العظيمة. وبالرغم من أن الحياة السياسية، والدينية، والاجتماعية في عصر ابن كثير كانت مظلمة ومضطربة في غالبها كما مضى، إلا أن الحالة العلمية للبلاد كانت مشرقةً إلى حد كبير. فإنه لا يخفى على المتتبع للحركة العلمية وسيرها في العالم الإسلامي أن مصر والشام قد ازدهرت فيهما الحياة العلمية في تلك الفترة ازدهاراً عظيماً، وأصبحتا مقصداً لكثير من أهل العلم الوافدين من سائر أقطار العالم الإسلامي، ولا أدلَّ على صدق ذلك من هذا التراث العلمي الهائل الذي أَثْمَرَتْهُ جهود العلماء في تلك الحِقْبَة. ولقد كان للجوامع والمدارس التي كانت كثيرة منتشرة في ذلك العصر بدمشق دور كبير في الإسهام في ازدهار الحركة العلمية آنذاك. وكان للملوك والأمراء اهتمام كبير ببناء الجوامع والمدارس، ورعاية أمرها، والإنفاق عليها، وهنا يحدثنا ابن كثير -رحمه الله- عن اهتمام السلاطين ببناء الجوامع، فيقول في أحداث سنة (717هـ):" وفي صفر شُرِع في عمارة الجامع الذي أنشأه ملك الأمراء تنكز[38] نائب الشام ظاهر باب النصر تجاه حكر السماق، على نهر بانياس بدمشق، وتردد القضاة والعلماء في تحرير قبلته، فاستقر الحال في أمرها على ما قاله الشيخ تقي الدين بن تيمية في يوم الأحد الخامس والعشرين منه، وشرعوا في بنائه بأمر السلطان، ومساعدته لنائبه في ذلك"[39]. وأما عن أشهر الجوامع بدمشق في ذلك الوقت فهو: (الجامع الأموي) ويعرف أيضاً بـ (جامع بني أمية)، وإذا أُطْلِقَ (جامع دمشق) فلا يراد إلا هو، وهو من أعظم جوامع دمشق. وقد كان لهذا الجامع في عصر ابن كثير أثرٌ كبيرٌ في الحركة العلمية، وعظيم المكانة

38. تنكز بن عبدالله الناصري. نائب السلطنة بالشام.

39. البداية والنهاية. 14/ 92، 93.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

العلمية والدينية. ومن الأخبار العلمية التي أشار إليها ابن كثير في هذا الجامع: ما ذكره في ترجمة الشيخ محب الدين عبدالله بن أحمد المقدسي الحنبلي[40] من أنه: "كانت له مجالس وعظ من الكتاب والسنة في الجامع الأموي"[41]. ويقول عن الشيخ إبراهيم بن المحب[42]: "كان يحدث بالجامع الأموي... وكان مجلسه كثير الجمع لصلاحه وحسن ما كان يؤديه من المواعيد النافعة"[43]. وأما على صعيد المؤلفات فالعصر بحق كان ذهبياً من حيث انتشار العلم وكثرة أهله، ولعلي أذكر – على سبيل المثال لا الحصر– دون ذكر مؤلفات إمام وعالم الزمان في ذلك الوقت، شيخ الإسلام ابن تيمية فسيرد ذكرها في أكثر من موضع من خلال الحديث عنه وهي كثيرة جداً جداً– أما غيره فكُتب ابن القيم أكثر من أن تحصى كذلك، ووُجدت في ذلك العصر كتب الشروح الحديثية، كـ(شرح البخاري) لقطب الدين الحلبي ت735هـ و(شرح الترمذي) لابن سيد الناس ت734هـ وكلاهما لم يكمل. ووجدت كتب الرجال، وعلى رأسها (تهذيب الكمال) للحافظ الْمِزِّي ت742هـ و(الميزان) للحافظ الذهبي ت748هـ. وكذا وُجدت كتب الأطراف الحديثية، وأهمها في ذلك العصر: (تحفة الأشراف) للحافظ الْمِزِّي. ووجدت الكتب التاريخية التي جمعت حوادث تلك الفترة وتواريخها وما قبلها، وعلى رأسها (البداية والنهاية) للحافظ ابن كثير ت774هـ وتاريخ الإسلام للذهبي.

كما أُلِّفت كتب جامعة في اللغة، وأهمها: (لسان العرب) للعلامة ابن منظور ت711هـ. إلى غير ذلك من المؤلفات الكثيرة النافعة جداً والتي اتسمت في ذلك العصر بالشمول والجمع والاستيعاب.

ويرى الباحث: أنه ومن خلال هذا السرد يتبيّن لنا فقه الإمام الحافظ ابن كثير، وحُبّه للجماعة والائتلاف والدعوة لها، بدلاً من الفرقة والتشتت؛ بل ويثني على من جمع الناس على إمام واحد بدلاً من الجماعات

---

40. المحدث الرحال الحافظ، عني بالحديث أتم عناية وأكثر السماع والكتابة، وحدث. توفي في ثاني عشرين جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وستمائة. وله أربعون سنة. ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب. 291/1.

41. البداية والنهاية 208/14.

42. إبراهيم بن أحمد بن المحب، أبو إسحاق المقدسي، طلب الحديث وقتاً، وسمع جملة، توفي رحمه الله سنة (749هـ) في الطاعون العام. الدرر الكامنة: 7.8/1.

43. البداية والنهاية.263/14.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

الممزقة التي تسبب التباغض والعداوة، وهذا من فقهه — رحمه الله – وكذلك شهود مجالس الصلح بين العلماء والقضاة كان له أثر كبير في حياة الحافظ ابن كثير وحربه للبدع والشركيات والمعاصي ومناصرته للشيخ الإسلام في ذلك. فهو يُعَدّ واحداً من أبرز علماء هذه الأمة الذين حملوا راية الإصلاح الديني في ذلك العصر. وكذلك كان لمعاصرته لهذا الجمع من العلماء وهذه المصنفات أكبر الأثر في الحافظ ابن كثير رحمه الله. فهو بحق عاصر زمن النهضة العلمية من حيث وفرة الإنتاج العلمي وغزارته، مع تنوع الفنون التي تناولتها المؤلفات آنذاك؛ بل وأحد العظماء الذين أَمَدُّوا المكتبة الإسلامية بقدر هائل من المؤلفات النافعة في شَتَّى الفنون. بالرغم مما ذكر من مآسي وأحداث في ذلك العصر.

وختاماً أنقل من كتابه البداية والنهاية واقعتين حدّث بهما هو نفسه وعدّهما أعجوبتين علميتين، وكان قد تأثر بهما كثيراً، فقال: "أعجوبة من العجائب وحضر شاب عجمي من بلاد التبريز وخراسان يزعم أنه يحفظ البخاري ومسلماً وجامع المسانيد والكشاف للزمخشري، وغير ذلك من محاضيرها، في فنون أخر، فلما كان يوم الأربعاء سلخ شهر رجب قرأ في الجامع الأموي بالحائط الشمالي منه، عند باب الكلاسة من أول صحيح البخاري إلى أثناء كتاب العلم منه، من حفظه وأنا أقابل عليه من نسخة بيدي، فأدى جيداً، غير أنه يصحف بعضاً من الكلمات لعجم فيه، وربما لحن أيضاً في بعض الأحيان، واجتمع خلق كثير من العامة والخاصة وجماعة من المحدثين، فأعجب ذلك جماعة كثيرين، وقال آخرون منهم إن سرد بقية الكتاب على هذا المنوال لعظيم جداً، فاجتمعنا في اليوم الثاني وهو مستهل شعبان في المكان المذكور، وحضر قاضي القضاة الشافعي وجماعة من الفضلاء، واجتمع العامة محدقين فقرأ على العادة غير أنه لم يطول كأول يوم، وسقط عليه بعض الأحاديث، وصحف ولحن في بعض الألفاظ، ثم جاء القاضيان الحنفي والمالكي فقرأ بحضرتهما أيضا بعض الشيء، هذا والعامة محتفون به متعجبون من أمره، ومنهم من يتقرب بتقبيل يديه، وفرح بكتابتي له بالسماع على الإجازة، وقال: أنا ما خرجت من بلادي إلا إلى القصد إليك، وأن تجيزني،

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

وذكرك في بلادنا مشهور، ثم رجع إلى مصر ليلة الجمعة وقد كارمه القضاة والأعيان بشيء من الدراهم يقارب الألف[44]. قال العلامة أحمد شاكر وهو يبين هذا الأثر فيقول:" وهذا الخبر يدل على أن كتابه " جامع المسانيد" وصل إلى أقصى الشرق، في بلاد تبريز وخراسان، حتى يحفظه هذا الشاب الأعجمي أو يحفظ شيئاً منه. في حين أن الحافظ ابن كثير لم يتم تأليف " جامع المسانيد" كما هو معروف. فكأن العلماء وطلاب العلم كانوا ينسخون ما يخرج منه، ويتداولونه بينهم، حتى يصل من دمشق إلى نلك النواحي النائية"[45].

وقال:" أعجوبة أخرى غريبة لما كان يوم الثلاثاء العشرين من شعبان دعيت إلى بستان الشيخ حسن العلامة كمال الدين بن الشريشي شيخ الشافعية وحضر جماعة من الأعيان منهم الشيخ العلامة شمس الدين بن الموصلي الشافعي، والشيخ الإمام العلامة صلاح الدين الصفدي، وكيل بيت المال، والشيخ الإمام العلامة شمس الدين الموصلي الشافعي، والشيخ الإمام العلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي من ذرية الشيخ أبي إسحق الفيروز آبادي، من أئمة اللغويين، والخطيب الإمام العلامة صدر الدين بن العز الحنفي أحد البلغاء الفضلاء، والشيخ الإمام العلامة نور الدين علي بن الصارم أحد القراء المحدثين البلغاء، وأحضروا نيفا وأربعين مجلداً من كتاب المنتهى في اللغة للتميمي البرمكي وقف الناصرية ،وحضر ولد الشيخ كمال الدين بن الشريشي، وهو العلامة بدر الدين محمد، واجتمعنا كلنا عليه، وأخذ كل منا مجلداً بيده من تلك المجلدات، ثم أخذنا نسأله عن بيوت الشعر المستشهد عليها بها، فينشر كلا منها ويتكلم عليه بكلام مبين مفيد، فجزم الحاضرون والسامعون أنه يحفظ جميع شواهد اللغة ولا يشذ عنه منها إلا القليل الشاذ، وهذا من أعجب

---

44 . نفسه. 336/14.

45 . شاكر، أحمد. *عمدة التفاسير عن الحافظ ابن كثير. ومختصر تفسير القرآن العظيم*. 1426هـ .2005م. دار الوفاء. ط2. 27/1.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

العجائب، وأبلغ الإعراب[46].ولعل الأعجوبة التي أرادها الحافظ ابن كثير هنا تكمن في قوة حفظ كمال الدين بن الشريشي واستحضاره لما سئل عنه من شواهد شعرية.

ويرى الباحث: أن هذا المجالس العلمية التي كان يحضرها الحافظ ابن كثير، والمناظرات التي كان يجريها، بحضرة كبار العلماء والقضاة لاشك أن كان لها أكبر الأثر في حياة الحافظ ابن كثير العلمية، ومنها كان ينهل، فكان بشهادة كل منصف، المفسر المحدث الأصولي الفقيه اللُغوي المؤرخ، رحمه الله – تعالى– رحمة واسعة.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

[46]. نفسه. 337/14.

المبحث الثالث

الحياة العلمية في بلاد الشام وأثرها في صقل فكر ابن كثير

كان للحركة العلمية في عصر المماليك ازدهار واسع، فتميّز العصر المملوكي بظهور "الموسوعات الكبرى" في الأدب، والنحو، وعلم الحديث، والفقه،والتاريخ. ونشأت المكتبات والخزانات التي تضم المئات من المؤلفات في شتى أنواع المعارف، وفي تلك الفترة حصل إقبال كبير من العلماء على مصر والشام، ونبغ في كل علمٍ أعلام، وفي كل فنٍ أفذاذ، ما تزال مؤلفاتهم مِلء السمع والبصر، ففي ميدان العلوم الدينية كثرت المؤلفات في علوم القرآن، والحديث، والتفسير، والفقه، والأصول، وغيرها، ففي مقدمة هؤلاء الأعلام في ذلك العصر يأتي المصلح الكبير، والإمام الشهير، شيخ الإسلام أحمد بن تيمية أبو العباس، صاحب المؤلفات التي تزيد على الثلاثمائة مؤلف ولعل من أشهرها: مجموع الفتاوى، ودرء تعارض العقل والنقل، والإيمان، والصارم المسلول، وغيرها كثير جداً.وكذلك من الأعلام في تلك الفترة تلميذه الإمام ابن قيم الجوزية، ومن أشهر مؤلفاته: زاد المعاد، ومدارج السالكين، وحادي الأرواح، والطب النبوي، وغيرها كثير، وكذلك شمس الدين الذهبي، صاحب تذكرة الحفاظ، وتاريخ الإسلام، وسير أعلام النبلاء، وغيرها من المؤلفات القيّمة، كما تميّز ذلك العصر أيضاً بعدم التخصّص، فالمؤلف يكتب في شتى العلوم فغدت البلاد محوراً لنشاط علمي متعدد الأطراف. ويرجع السبب في حفظ التراث الإسلامي بعد ما أصاب بعض أنحاء العالم الإسلامي في العراق وفي الأندلس على أيدي الصليبيين من خراب ومحن ودمار، فضلاً عما أصاب بلاد الشام من أضرار على أيدي المغول حينما غزوْها، وفي الأندلس على أيدي الصليبيين جميعاً، أن ظلت مصر وبلاد المماليك بمنجاة من مثل تلك المصائب أن تغدو هي المجال الوحيد للنشاط الفكري والثقافي والفني، وبُذلت كل الطاقات في إنشاء المدارس، ودور الحديث في مصر والشام، واسْتُدعي علماء السنّة والفقهاء من كل مكان، واستمرت سياسة المماليك في نشر مذاهب أهل السنة، – الأحناف والمالكية والشافعية والحنابلة– والتمكين لها في

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

مصر وبلاد الشام وذلك ببناء المدارس والمساجد الكبرى التي تنهض بهذا العبء، وهكذا استمرت الحركة العلمية في عهد المماليك. وعلى الرغم من تاريخ التتار الأول المظلم في بغداد والشام وما فعلوه بأهلها من استبداد وعدوان وظلم، وعلى الرغم من بُعد المماليك عن العروبة، فقد كان آخر ملوكهم وهو أبو سعيد بن خربندا شديد الإيمان بالإسلام، أخلص له، وتحمّس لعلومه وآدابه ولغته، فقد أبقى مدارس كثيرة في الشام ومصر والحجاز ما تزال شاهدة على حرصه الشديد على نشر العلم وتعميمه، ولم تخل تلك العصور المتأخرة من تشييد مدرسة، أو بناء جامع فيها مدرسة، أو خزانة كتب، أو تأسيس كتاب للأطفال، أو دار قرآن للأيتام، أو دار حديث للطلاب. ولقد كان الإمام الحافظ ابن كثير ممن عاصر زمن المماليك في الشام؛ بل وأثنى على آخر ملوكهم، فقال في كتابه البداية والنهاية في حوادث سنة ست وثلاثين وسبعمائة من:" وفي عاشر صفر خرج ابن جملة من السجن بالقلعة وجاءت الأخبار بموت ملك التتار أبي سعيد بن خربندا بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن تولى بن جنكيزخان، في يوم الخميس ثاني عشر ربيع الآخر بدار السلطنة بقراباغ، وهي منزلهم في الشتاء، ثم نقل إلى تربته بمدينته التي أنشأها قريبا من السلطانية مدينة أبيه، وقد كان من خيار ملوك التتار وأحسنهم طريقة وأثبتهم على السنة وأقومهم بها، وقد عزّ أهل السنة بزمانه وذلّت الرافضة، بخلاف دولة أبيه، ثم من بعده لم يقم للتتار قائمة، بل اختلفوا فتفرقوا شذر مذر إلى زماننا هذا، وكان القائم من بعده بالأمر ارتكاوون من ذرية أبغا، ولم يستمر له الأمر إلا قليلاً"[47]. وكانت حياة الحافظ بن كثير حياة علمية حافلة بالجهد في التحصيل والتصنيف، في عصر مملوء بالأكابر من علماء النقل والعقل، وكانت الشام آنذاك معقل من معاقل العلم والعلماء، وتنوعت فيها المدارس الفقهية، فوُجد الفقيه الحنفي والمالكي والحنبلي فضلاً عن الشافعي الذي هو أصل مذهب تلك الديار، ولا شك أن ذلك مما أثر في صقل مواهب الحافظ ابن كثير، وأثرى فكره، وحرّره من ربقة التعصب المذهبي، وجعل عنده من التنوع الفكري

47. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت 774هـ. 1977م. *البداية والنهاية*. بيروت: مكتبة المعارف. .د.ط. 173/14.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

بسبب الكوكبة الكبيرة من العلماء الذين عاصرهم، ولم يكن متأثراً متعصباً لمذهب بعينه، بل نراه يقرأ على الشافعي والحنبلي والحنفي سواء، وكان متبعاً للأثر متى صحّ الخبر عنده. ولقد ذكر بعضاً من شيوخه على خلاف مذاهبهم ليدلّنا على أنه ليس مقلداً جامداً؛ بل كان يدور من الدليل حيث دار، آخذا بالأثر، ولو خالف في ذلك شيوخه. فذكر في كتابه البداية والنهاية من أمثال هؤلاء الذين كانوا بدمشق:" الشيخ الإمام الحافظ قطب الدين أبو محمد عبد الكريم الحلبي الأصل ثم المصري، أحد مشاهير المحدثين بها، والقائمين بحفظ الحديث وروايته وتدوينه وشرحه والكلام عليه، ولد سنة أربع وستين وستمائة بحلب، وقرأ القرآن بالروايات، وسمع الحديث وقرأ الشاطبية والألفية، وبرع في فن الحديث، وكان حنفي المذهب وكتب كثيراً وصنف شرحاً لأكثر البخاري، توفي سنة خمس وثلاثين وسبعمائة"[48]. وقال أيضاً:" شيخنا الإمام العالم العابد شمس الدين أبو محمد عبد الله بن العفيف محمد بن الشيخ تقي الدين يوسف بن عبد المنعم ابن نعمة المقدسي النابلسي الحنبلي، إمام مسجد الحنابلة بها، ولد سنة سبع وأربعين وستمائة، قرأتُ عليه عام ثلاث وثلاثين وسبعمائة مرجعنا من القدس كثيراً من الأجزاء والفوائد، توفي يوم الخميس ثاني عشرين ربيع الآخر ودفن هناك رحمه الله"[49].

وقال:" الشيخ الإمام ذو الفنون تاج الدين أبو حفص عمر بن علي بن سالم بن عبد الله اللخمي الاسكندراني، المعروف بابن الفاكهاني، ولد سنة أربع وخمسين وستمائة، وسمع الحديث واشتغل بالفقه على مذهب مالك، وبرع وتقدم بمعرفة النحو وغيره، وله مصنفات في أشياء متفرقة"[50].

وكان مما تأثر به الحافظ ابن كثير، وأفاد منه كثيراً، شهوده مجالس أهل القضاء من الأحناف والمالكية والحنابلة في دمشق، فكان يسمع منهم، ويرى أحكامهم في أهل الزندقة والحلول، دون أن تأخذهم في الله

48. نفسه. 171/14

49. نفسه. 14/ 179.

50. نفسه. 14/ 168.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

لوْمة لائم، فقد ذكر في البداية والنهاية في حوادث سنة إحدى وأربعين وسبعمائة قال: " وفي يوم الثلاثاء سلخ شهر شوال عُقد مجلس في دار العدل بدار السعادة، وحضرتُه يومئذ، واجتمع القضاة والأعيان على العادة، وأُحضر يومئذ عثمان الدكاكي قبحه الله تعالى، وادُعي عليه بعظائم من القول لم يُؤْثر مثلها عن الحلاج ولا عن ابن أبي الغدافر السلقماني، وقامت عليه البيّنة دعوى الأُلهية لعنه الله، وأشياء أخر من التنقيص بالأنبياء ومخالطته أرباب الريب من الباجريقية[51]، وغيرهم من الاتحادية عليهم لعائن الله، ووقع منه في المجلس من إساءة الأدب على القاضي الحنبلي، وتضمن ذلك تكفيره من المالكية أيضاً، فادعى أن له دوافع وقوادح في بعض الشهود، فرُدّ إلى السجن مقيداً مغلولاً مقبوحاً، أمكن الله منه بقوته وتأييده، ثم لما كان يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من ذي القعدة أُحضر عثمان الدكاكي المذكور إلى دار السعادة وأقيم بين يدي الأمراء والقضاة وسُئل عن القوادح في الشهود فعجز فلم يقدر، وعجز عن ذلك فتوجه عليه الحكم، فسُئل القاضي المالكي الحكم عليه، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم حكم بإراقة دمه وإن تاب، فأُخذ المذكور فضُربت رقبته بدمشق بسوق الخيل، ونودي عليه، هذا جزاء من يكون على مذهب الاتحادية، وكان يوماً مشهوداً بدار السعادة، حضر خلق من الأعيان والمشايخ، وحضر شيخُنا جمال الدين المزي الحافظ، وشيخنا الحافظ شمس الدين الذهبي، وتكلما وحرضا في القضية جداً، وشهدا بزندقة المذكور بالاستفاضة، وكذا الشيخ زين الدين أخو الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وخرج القضاة الثلاثة المالكي والحنفي والحنبلي، وهم نفذوا حكمه في المجلس، فحضروا قتل المذكور، وكنت مباشراً لجميع ذلك من أوله إلى آخره"[52].

---

51. الفرقة الضالة الباجريقية التي تنسب إلى محمد الباجريقي، والمشهور عنه إنكار الصانع جل جلاله، وتقدست أسماؤه. البداية والنهاية.132/14.

52. البداية والنهاية. 14/ 189، 190 .

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

ولعلّ الأثر يظهر جلياً من هذه المواقف والأحكام القضائية وأمثالها التي كان يحضر مجالسها الحافظ ابن كثير، والتي كونت فيه شخصية وقّافة عند الحق، قوية لاُ تداهن وتُجامل، وإن كان الخصم غير مسلم، فالحقّ أحقّ أن يُتّبع كما قال الله –تعالى-.

قال الشيخ أحمد شاكر: "ولكن الحافظ ابن كثير يلزم جانب الحق والعدل، ولا يرضى بالظلم، ولو كان ظاهره الانتقام والثأر للمسلمين. فيقول- أي ابن كثير -:" وجاء المرسوم الشريف من الديار المصرية، إلى نائب السلطنة، بمسك النصارى من الشام جملة واحدة، وأن يأخذ منهم ربع أموالهم، لعمارة ماخرب من الإسكندرية، ولعمارة مراكب تغزو الإفرنج، فأهانوا النصارى، وطلبوا من بيوتهم بعنف. وخافوا أن يقتلوا، ولم يفهموا ما يُراد بهم فهربوا كل مهرب"...إلى أن يقول: " ولم تكن هذه الحركة شرعية ولا يجوز اعتمادها شرعاً" ورد على الأمير قائلاً له " فذكرت له أن هذا لا يجوز اعتماده في النصارى، فقال: - أي الأمير – إن بعض فقهاء مصر أفتى للأمير الكبير بذلك! فقلت له: هذا مما لايسوغ شرعاً ولا يجوز لأحد أن يُفتي بهذا. ومتى كانوا باقين على الذمة، يؤدون إلينا الجزية ملتزمين بالذل والصغار، وأحكام الملة قائمة، لا يجوز أن يُؤخذ منهم الدرهم الواحد الفرد فوق ما يبذلونه من الجزية ومثل هذا لا يخفى على الأمير! فانظر إلى هذا الإمام العظيم، الذي يقف عند حدود الشريعة المطهرة، يُقيم ميزان العدل الصحيح كما عرفه من دينه الحنيف، ويألم ويسترجع لما ناب النصارى من مصادرة ظالمة من أمراء طغاة جائرين، كما آلم واسترجع من قبل لما أصاب المسلمين من غدر النصارى وبغيهم، وشتان هذا وذاك، ولكنه لا يرضى إلا أن يقيم العدل. فكان هذا العقل المستقل الثابت على الحق، والذي لا تغلبه العواطف والأهواء، مما يجعل للرجل منزلة عند الناس كبيرة، يثق به أنصاره وغير أنصاره، وموافقوه ومخالفوه"[53]. وكذلك كان من سمات العصر الذي عاش فيه ابن كثير سيطرة المذهب الأشعري، وكذلك مسحة من التصوف مع استعداد تام لقبول النظرة التقليدية

53. شاكر، أحمد 1426هـ . 2005م. *عمدة التفاسير مختصر تفسير القرآن العظيم*. 29/1.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

في الشؤون العامة، إلا أن وجود مدرسة مقاومة كبيرة يقودها علماء كبار كأمثال شيخ الإسلام ابن تيمية فارس المنقول والمعقول، وتلاميذه كابن القيم والذهبي، ومن بعدهم كابن كثير وابن حجر، قد حافظ على مستوى رفيع في الأخلاق والتفكير، ورفض قبول أي تجديد أو ترتيب قد ينتقص من صفاء العقيدة الأولى.

وكان ابن تيمية خصماً لكل الطوائف والفرق جميعها التي خالفت ذالك المنهج السوي، وقد أثار عليها منذ أول الأمر، حرباً عواناً، وهذا هو الذي جعله يُعتبر (مصلحاً) يقود هذه المدرسة العلمية السلفية، بسبب نشاطه ودقة تفكيره وصفاء أسلوبه. وقد كان علماء السنة، سواء في تفنيدهم للصوفية أو في إعادة النظر في بعض الأمور المتعلقة بالإسلام، نشيطين جداً. ولعل ابن تيمية على ما ذكرنا، كان أكبر قادة الفكر السني (الحنبلي) في ذلك العصر، والذي كان له أثر كبير في صقل عقلية الحافظ ابن كثير الذي لازمه، وتمسّك بما كان عليه شيخه، إلا في النزر القليل. فابن تيمية ومعاصروه يرون أن الإسلام هو الدين الحق، ومن ثم فإنه كان يتعيّن على المسلم أن يؤمن بالله وبرسوله، فيجب على المسلم أن يرجع إلى القرآن والسنّة لتفهم العقيدة؛ لأن جميع الأمور المتعلقة بالإيمان والعمل موضحة فيهما بما لا يترك زيادة لمستزيد. والإيمان الذي يضمن لمسلم النجاة هو الاعتقاد بالله وبرسوله. وإصرار ابن تيمية على أن الإيمان وحدة لا تتجزأ أمر يلفت النظر، إذ أن هذه النظرة قبلت العبادة على ما جاءت عليه في مصدري الإسلام الأساسيين فقط.

يضاف إلى ذلك أن الإنسان يجب أن يسلم أمره إلى الله، وأن تسليمه يجب أن يكون تاماً، شأنه في ذلك شأن إيمانه.تلك هي جملة من الأمور التي صبغت فكر ابن كثير بذلك اللون من الفكر الغير مقيد برأي ولا لون معين، ولعل تأثره بشيخه ابن تيمية كان هو وراء تلك النظرة الصحيحة، وذلك الموقف، ولم يكن ابن تيمية وحيداً في هذا الموقف؛ بل إن العز بن عبد السلام وابن قيّم الجوزية لم يريا قبول آراء الأئمة الأربعة قبولاً مطلقاً.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

ويرى الباحث أن هذا التنوع في المذاهب الفقهية، والمدارس الفكرية، وجمع كبير من العلماء الذين عاصرهم الحافظ ابن كثير كابن تيمية والمزي والبرزالي والفزاري وابن القيم والذهبي وغيرهم كثير، وكذلك كوكبة القضاة من كل المذاهب الفقهية في بلاد الشام، وكذلك السلاطين والحكام على الذين تتابعوا على الحكم خلال ذلك العصر، ووجود الموسوعات العلمية الضخمة التي شملت فنون العلم والمعرفة على أنواعها، هي التي كان لها الأثر الكبير في حياة الحافظ ابن كثير وتكوين شخصيته العلمية الفذة.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

المبحث الرابع

العلاقة العلمية بين ابن كثير وابن تيمية وابن القيم والمزي

ونحن نتحدث عن الحافظ ابن كثير وتفسيره على سبيل العموم، وعن تفسيره لآيات الصفات وكلامه عنها على سبيل الخصوص، كان لزاماً أن نذكر العلاقة العلمية بينه وبين أئمة الدين وعلماء المسلمين الكبار الذين كان لهم أثر كبير عليه في ذلك، وكونه شافعي المذهب ومنهم من هو حنبلي المذهب فإن ذلك لم يمنعه من مناصرة الحق ولو خالف في ذلك مذهبه كما هو في باب العقائد والفقه والذي سيرد شيء من ذلك في موضعه – بإذن الله تعالى– .

ومن أشهر هؤلاء الأئمة، شيخ الإسلام ابن تيمية، والإمام ابن القيم، والحافظ المزي، الذين عاصرهم ابن كثير ولازم بعضهم مدة عشرين سنة وأخذ عنهم كثيراً، وتوطئة للكلام عن هذه العلاقة أذكر شيئاً من أخبار هؤلاء الأعلام ومواقفهم وبيان عقائدهم.

وأبتدئ الحديث عن العلاقة التي ربطت الحافظ ابن كثير مع شيخه الإمام ابن تيمية بذكر شيء من تاريخه وجهاده ومواقفه مع الحكام وأهل الأهواء ودعوته للجهاد ومحنته وسجنه ثم وفاته. فلقد قدر الله –تعالى– أن تُستباح بغداد في المرة الأولى على يد التتار في القرن السابع الهجري، وبالتحديد في عام 656هـ، وكان المعين لهم في ذلك ابن العلقمي الرافضي، ومن سار خلفه من أصحاب الأحقاد على الخلافة العباسية، وهو ومن معه من الرافضة وغيرهم من المنافقين قد أشار أولئك الملأ على هولاكو أن لا يصالح الخليفة، وقال الوزير متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عاماً أو عامين ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك، وحسّنوا له قتل الخليفة، فلما عاد الخليفة إلى السلطان هولاكو أمر بقتله، ويقال إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي، والمولى نصير الدين الطوسي، وكان النصير عند هولاكو قد استصحبه في خدمته لما فتح قلاع الالموت، وانتزعها من أيدي الإسماعيلية، وكان النصير وزيراً لشمس الشموس ولأبيه من قبله علاء الدين بن

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

جلال الدين، وكانوا ينسبون إلى نزار بن المستنصر العبيدي، وانتخب هولاكو النصير ليكون في خدمته كالوزير المشير، فلما قدم هولاكو وتهيّب من قتل الخليفة هون عليه الوزير ذلك فقتلوه رفساً، وهو في جوالق لئلا يقع على الأرض شيء من دمه، خافوا أن يؤخذ بثأره فيما قيل لهم، وقيل؛ بل خنق ويقال بل أغرق فالله أعلم، فباؤوا بإثمه وإثم من كان معه من سادات العلماء والقضاة والأكابر والرؤساء والأمراء وأولي الحل والعقد ببلاده[54].

والكثير من الناس يجهل الجوانب العملية من حياة الشيخ، فإنهم عرفوه عالما ومؤلفًا ومفتيًا من خلال مؤلفاته المنتشرة، مع أن له مواقف مشهودة في مجالات أخرى عديدة ساهم فيها مساهمة قوية في نصرة الإسلام وعزة المسلمين فمن ذلك: جهاده بالسيف وتحريضه المسلمين على القتال، بالقول والعمل ، فقد كان يجول بسيفه في ساحات الوغى، مع أعظم الفرسان الشجعان، والذين شاهدوه في القتال أثناء فتح عكا عجبوا من شجاعته وفتكه بالعدو.

ولعلنا إذا أردنا أن نعرف همّ شيخ الإسلام بقضايا دحر الكفار المعتدين، وطردهم عن بلاد المسلمين وتخليصها منهم، أن نقرأ ما سطره في رائعته ((رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية عند مداهمة التتار لديار المسلمين)). وها أنا أنقل حرفياً ما كتبه هذا الإمام المجاهد الكبير فقال – رحمه الله –:" ولهذا قال الإمامان عبد الله بن المبارك، وأحمد بن حنبل وغيرهما: إذا اختلف النّاس في شيءٍ، فانظروا ماذا عليه أهل الثغر فإن الحق معهم؛ لأن الله يقول:﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[55]. وفي الجهاد أيضًا: حقيقة الزهد في الحياة الدنيا، وفي الدار الدنيا، وفيه أيضًا: حقيقة الإخلاص، فإن الكلام فيمن جاهد في سبيل الله لا في سبيل الرياسة، ولا في سبيل المال، ولا في سبيل الحمية، وهذا لا يكون إلاّ لمن قاتل ليكون الدّين كلّه لِلَّهِ

54. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت 774هـ. 1408 هـ 1988م. *البداية والنهاية*. الناشر: دار إحياء التراث العربي. د.ط.234/13.

55. القرآن الكريم.سورة العنكبوت.29: 69 .

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

وَلِتكون كلمة اللَّه هي العليا، وأَعظم مراتب الإخلاص: تسليم النفس والمال للمعبود كما قال تعالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفسَهمْ وَأَمْوَالَهمْ بِأَنَّ لَهم الْجَنَّةَ يقَاتِلونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتلونَ وَيقْتَلونَ ﴾[56] والجنة: اسم للدار التي حوت كل نعيم، أَعلاه النظر إلى اللَّه إلى ما دون ذلك مِما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين مِمَا قد نعرفه وقد لا نعرفه، كما قال اللَّه – تعالى – فيما رواه عنه رسوله – صَلى الله عليه وسلم–: ((أعددت لعبادِي الصَّالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))[57].

موقفه من الحكام:

كان– رحمه الله– من أشجع الناس وأقواهم قلباً و أثبتهم جأشاً، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده ولا يخاف في الله لومة لائم. يقول عنه صاحب كتاب العقود الدرية:" وأما شجاعته وجهاده وإقدامه فأمر يتجاوز الوصف ويفوق النعت"[58]. فمن تلك المواقف المشهودة أنه لما ظهر السلطان غازان على دمشق المحروسة جاءه ملك الكرج وبذل له أموالاً كثيرة جزيلة على أن يمكنه من الفتك بالمسلمين من أهل دمشق ووصل الخبر إلى الشيخ، فقام من فوره وشجع المسلمين ورغبهم في الشهادة ووعدهم على قيامهم بالنصر والظفر والأمن وزوال الخوف، فانتدب منهم رجالاً من وجوههم وكبرائهم وذوي الأحلام منهم فخرجوا معه إلى حضرة السلطان غازان فلما رآهم السلطان قال من هؤلاء فقيل هم رؤساء دمشق فأذن لهم، فحضروا بين يديه. فتقدم ابن تيمية أولاً فلما أن رآه أوقع الله له في قلبه هيبة عظيمة حتى أدناه وأجلسه، وأخذ الشيخ في الكلام معه أولاً في عكس رأيه عن تسليط المخذول ملك الكرج على المسلمين وضمن له أموالاً

---

56. القرآن الكريم.سورة التوبة.9: 111 .

57. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل.1422هـ.*الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله . صلى الله عليه وسلم – وسننه وأيامه*.كتاب بدء الخلق. باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه. حديث رقم 7498. 144/9. ابن تيمية. أحمد بن عبدالحليم ت 728هـ. *رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية عند مداهمة التتار لديار المسلمين*.د.ت.تقديم واعتناء د. مجيد الخليفة. د.ط. ص17.

58. المقدسي، أبو عبدالله محمد بن احمد بن عبدالهادي. *العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية*.د.ت. تحقيق محمد حامد الفقي. بيروت: دار الكاتب العربي.د.ط. ص39.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

وأخبره بحرمه دماء المسلمين وذكره ووعظه فأجابه إلى ذلك طائعاً وحقنت بسببه دماء المسلمين وحميت ذراريهم وصين حريمهم، وقال الشيخ وجيه الدين ابن المنجا: كنت حاضراً مع الشيخ حينئذ فجعل يعني الشيخ يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل وغيره ويرفع صوته على السلطان في أثناء حديثه حتى جثا على ركبتيه وجعل يقرب منه في أثناء حديثه حتى لقد قرب أن تلاصق ركبته ركبة السلطان، والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكليته مصغ لما يقول شاخص إليه لا يعرض عنه وأن السلطان من شدة ما أوقع الله ما في قلبه من المحبة والهيبة سأل من يخصه من أهل حضرته من هذا الشيخ وقال ما معناه إني لم أر مثله ولا أثبت قلباً منه ولا أوقع من حديثه في قلبي ولا رأيتني أعظم انقياداً مني لأحد منه فأخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل، فقال الشيخ للترجمان قل لغازان أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاضٍ وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا فغزوتنا وأبوك وجدك كانا كافرين وما عملا الذي عملت، عاهدا فوفيا وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت وجرت. وسأله إن أحببت أن أعمّر لك بلد آبائك حران وتنتقل إليه ويكون برسمك، فقال: لا والله لا أرغب عن مهاجر إبراهيم استبدل به غيره. فخرج من بين يديه مكرماً معززاً قد صنع له الله بما طوى عليه نيته الصالحة من بذله نفسه في طلب حقن دماء المسلمين فبلغه ما أراده، وكان ذلك أيضا سببا لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم وردهم على أهلهم وحفظ حريمهم وهذا من أعظم الشجاعة والثبات وقوة الجأش.فلما خرجوا من عنده قال له قاضي القضاة نجم الدين بن صصري وغيره:كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك، والله لا نصحبك من هنا، فقال: وأنا والله لا أصحبكم[59]. وحين وشى به البعض إلى السلطان المعظم الملك الناصر محمد أحضره بين يديه قال فكان من جملة كلامه: إنني أخبرت انك قد أطاعك الناس وأنفي نفسك اخذ الملك، فلم يكترث به بل قال له بنفس مطمئنة وقلب ثابت وصوت عال سمعه كثير ممن حضر أنا أفعل ذلك والله إن ملكك وملك المغل لا يساوي عندي

59. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت 774هـ . 1408هـ 1988م. *البداية والنهاية*. 102/14.بتصرف.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

فلسين. فتبسم السلطان لذلك وأجابه في مقابلته بما أوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة: إنك والله لصادق، وإن الذي وشيء بك إلي كاذب، واستقر له في قلبه من المحبة الدينية ما لولاه لكان قد فتك به منذ دهر طويل من كثرة ما يلقى إليه في حقه من الأقاويل الزور والبهتان، ممن ظاهر حاله للطغام العدالة وباطنه مشحون بالفسق والجهالة[60].

محنته وسجنه ومعاملته في سجنه بالقلعة:

المطلع على حياة الشيخ يكاد يجزم بأنه لم يبق له من وقته فضلة، فقد حورب وطورد وأوذي وسجن في سبيل الله حوالي سبع مرات أولها في دمشق عام 693 هـ وآخرها بدمشق أيضاً سنة 726هـ وحتى عندما كان في سجنه في القلعة كان معظماً مكرماً يكرمه نقيب القلعة ونائبها إكراماً كثيراً، ويستعرضان حوائجه ويبالغان في قضائها، وكان ما صنفه في هذه المدة قد خرج بعضه من عنده وكتبه بعض أصحابه واشتهر وظهر، فلما كان في سجنته الأخيرة قبل وفاته بأشهر ورد مرسوم السلطان بإخراج ما عنده كله ولم يبق عنده كتاب ولا ورقة ولا دواة ولا قلم، فكان بعد ذلك إذا كتب ورقة إلى بعض أصحابه يكتبها بفحم، ومنها ورقة يقول فيها:

" بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ونحن لله الحمد والشكر في نعم متزايدة متوافرة، وجميع ما يفعله الله فيه نصر الإسلام، وهو من نعم الله العظام، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفي بالله شهيداً، فإن الشيطان استعمل حزبه في إفساد دين الله الذي بعث به رسله وأنزل كتبه، ومن سنة الله أنه إذا أراد إظهار دينه أقام من يعارضه فيحق الحق بكلماته ويقذف بالحق

60 . البزار، الحافظ عمر بن علي .د.ت. *الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية*.د.ط. ص74 ،75.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، والذي سعى فيه حزب الشيطان لم يكن مخالفة لشرع محمد وحده؛ بل مخالفة لدين جميع المرسلين إبراهيم وموسى والمسيح ومحمد خاتم النبيين صلى الله عليهم أجمعين"[61].

وفاته رحمه الله:

لقي شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله – ربه مسجوناً في سجن القلعة بدمشق في العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة هجرية[62].

العلاقة العلمية بين ابن كثير وشيخه ابن تيمية وتأثره به ووقوفه عند أقواله:

تفقه الإمام ابن كثير على فقهاء الشافعية في زمانه، فحفظ كتبهم، ودرس علومهم، بل وكتب الكتب المختصة بهم، فقد كان مذهب الشافعية هو المذهب المنتشر في بلاد الشام ومصر كما يقول الإمام السبكي رحمه الله:" وهذان الإقليمان — يعني الشام ومصر — وما معهما من عيذاب – وهي منتهى الصعيد إلى العراق – مركز ملك الشافعية منذ ظهر مذهب الشافعي، اليد العالية لأصحابه في هذه البلاد، لا يكون القضاء والخطابة في غيرهم، ومنذ انتشر مذهبه لم يول أحد قضاء الديار المصرية إلا على مذهبه، إلا ما كان من القاضي بكار، ولم يول في الشام قاض إلا على مذهبه، إلا البلاساغوني، وجرى له ما جرى، فإنه ولي دمشق وأساء السيرة، ثم أراد أن يعمل في جامع بني أمية إماماً حنفياً، وجامع بني أمية منذ ظهور مذهب الشافعي لم يؤم فيه إلا شافعي، ولا صعد منبره غير شافعي، فأراد هذا القاضي إحداث إمام حنفي[63].

---

61. المقدسي، أبو عبدالله محمد بن احمد بن عبدالهادي. د.ت. العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية.ص379.381. بتصرف.

62. العماد الحنبلي، شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي .1413هـ .1992م .*شذرات الذهب في أخبار من ذهب*. 149/8 بتصرف.

63. السبكي، 1413هـ الإمام العلامة تاج الدين بن علي بن عبد الكافي. *طبقات الشافعية الكبرى*. تحقيق د. محمود محمد الطناحي. د.عبد الفتاح محمد الحلو. دار النشر هجر للطباعة والنشر والتوزيع. ط2. ص 326.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

وعلى هذا الذي ذُكر فلقد كان الحافظ ابن كثير مفسراً فقهياً محدثاً قال عنه الذهبي:" الإمام المفتي المحدث البارع ثقة متفنن محدث متقن[64].

وكان في بدء حياته قد لازم شيخ الإسلام ابن تيمية- فشيخ الإسلام توفي وابن كثير عمره آنذاك ثمان وعشرون سنة – فأخذ عنه وناصر أرآءه وأفكاره بشدة، واستمر على تأييده ومناصرة أقواله حتى بعد نضوجه وملازمته لشيخه المزي لعشرين سنة ووفاة شيخ الإسلام ابن تيمية، فكان كثيراً ما يستشهد به وبأقواله[65] وسيأتي بيان ذلك أكثر.وبالرغم من اختلاف المذهب عند الشيخين، فابن تيمية كان حنبلياً، وابن كثير كان شافعياً، إلا إن ذلك- أي كونه شافعياً- لم يمنع الحافظ ابن كثير من تبني وتأييد أقوال ابن تيمية في مسائل الاعتقاد وكذلك مسائل الفقه والحديث، فعلى سبيل المثال وفي باب العقائد ينقل عن شيخه الإنكار في مسائل الاعتقاد المخالفة للشرع المطهر ولو كان شعراً.

مثال على ذلك يقول الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية" في قول المتنبي[66]:

يا من ألوذ به فيما أؤمله *** ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره *** ولا يهيضون عظماً أنت جابره[67].

وقد بلغني عن شيخنا العلامة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية – رحمه الله – أنه كان ينكر على المتنبي هذه المبالغة في مخلوق ويقول: إنما يصلح هذا لجناب الله – سبحانه وتعالى-. وقال ابن كثير: أخبرني العلامة

---

64. السيوطي، الإمام جلال الدين عبدالرحمن. 1393هـ 1973م. *طبقات الحفاظ*. ص 239.

65. انظر إلى تفسيره سورة الكافرون وهي من أواخر سور القرآن التي تكلم فيها بعد سنين من وفاة ابن تيمية. ومع ذلك يستشهد بأقواله.

66. المتنبي الشاعر المشهور أحمد بن الحسين بن عبد الصمد أبو الطيب الجعفي الشاعر المعروف كان مولده بالكوفة سنة ست وثلاثمائة هجرية، ونشأ بالشام بالبادية فطلب الأدب ففاق أهل زمانه فيه. ابن كثير. إسماعيل بن عمر . 1408. هـ 1988م. *البداية والنهاية*. 11/ 289، 290.

67. يمدح بعض الملوك. *البداية والنهاية*. 292/11.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

شمس الدين بن القيم – رحمه الله – أنه سمع الشيخ تقي الدين المذكور يقول: ربما قلت هذين البيتين في السجود أدعو لله بما تضمناه من الذل والخضوع[68].

علاقته بشيخه ابن القيم:

نشأ ابن القَيِّم –رحمه الله– وترعرع في مجتمع، كان يسوده من سلبيات ومفاسد دينية أخلاقية الكثير الكثير، وكان على خطى شيخه ابن تيمية في نبل المقاصد والسعي لإصلاح المجتمع المسلم من نبذ الأباطيل ونشر الحق والرجوع بالناس إلى ما كان عليه سلف هذه الأمة من التمسك بالكتاب والسنة فتعرَّض بسبب هذه الدعوة الإصلاحية للإيذاء وفتن أثناء جهاده لنشر دعوته، وسعيه لإصلاح حال مجتمعه. وظهر له أعداء يكيدون له، ويتربصون به الدوائر، ويحيكون ضده الدسائس والمؤامرات، كما فعلوا من قبل مع شيخه وأستاذه ابن تيمِية – رحمه الله– بسبب إنكاره شد الرحال إلى قبر الخليل وهي من البدع التي سادت المجتمع وقتئذ، وتقرّب الناس بها إلى الله ابتداعاً وضلالاً. فقام ابن القَيِّم – رحمه الله – في وجه هذه البدعة منكراً لها، ومبيناً مخالفتها لسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وهديه، فما كان من أعدائه وشانئيه إلا أن قاموا ضده، وآذوه، ثم حُبِس بسبب ذلك، وأوذي كثيراً. وبسبب ما أفتى به من المنع من شد الرحل إلى قبور الأنبياء، وبعد ذلك بأيام "أمر قاضي القضاة الشافعي في حبس جماعة من أصحاب الشيخ تقي الدين في سجن الحكم... وعزَّرَ جماعة منهم على دواب ونودي عليهم، ثم أطلقوا، سوى شمس الدين محمد بن قيم الجوزية؛ فإنه حُبِس بالقلعة، وسكتت القضية. ولعل في إطلاقهم كل رفاقه وإبقائه وحده في الحبس، ما يبين لنا مدى الحنْق الذي كان في نفوس أعدائه – من أهل البدع – ضده، ويبيّن لنا في الوقت نفسه، ما كان لابن القيم من دور بارز، وتأثير بالغ في الناس آنذاك، مما جعل هؤلاء يخشونه على بدعهم، فرأوا أن يحجبوه

68. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت 774هـ. 1408. هـ 1988م. *البداية والنهاية*. 292/11.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

في السجن. ولكن شاء الله – سبحانه – أن يشاطر ابن القَيِّم شيخه محنته هذه، فَسُجن معه في القلعة، ولأجل التهمة نفسها، ولكنه كان منفرداً عنه.

وُيشير ابن كثير – رحمه الله – إلى ما وقع له بسبب ذلك، فيقول: "وقد كان متصدياً للإفتاء بمسألة الطلاق التي اختارها الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وجرت بسببها فُصُولٌ يطول بسطها مع قاضي القضاة تقي الدين السبكي وغيره.....وفي يوم الثلاثاء سادس عشر جمادى الآخرة حصل الصلح بين قاضي القضاة تقي الدين السبكي وبين الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية، على يدي الأمير سيف الدين بن فضل ملك العرب، في بستان قاضي القضاة، وكان قد نقم عليه إكثاره من الفتيا بمسألة الطلاق[69].

علاقته العلمية بشيخه المزي:

وقبل الكلام عن تأثر ابن كثير بشيخه الحافظ جمال الدين المزي، يحسن أن نذكر شيئاً عن الحافظ المزي وعقيدته، فهو الإمام الحافظ الكبير، شيخ المحدثين وعمدة الحفاظ،أعجوبة الزمان، الحلبي الدمشقي. ولي دار الحديث الأشرفية[70] ثلاثاً وعشرين سنة، وقد بالغ في الثناء عليه أبو حيان وابن سيد الناس وغيرهم، قال عنه تقي الدين السبكي:إنه ما دخل دار الحديث أعلم ولا أحفظ من جمال الدين المزي. قال عنه الذهبي: شيخنا الإمام العالم الحبر الحافظ الأوحد محدث الشام، جمال الدين أبو الحجاج[71]. وللمزي كذلك محنة مع القاضي الشافعي ابن صصري سجن بسببها كما حكاها ابن كثير في البداية والنهاية فقال:" وكان للشيخ تقي الدين من الفقهاء جماعة يحسدونه لتقدمه عند الدولة وانفراده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطاعة الناس له ومحبتهم له وكثرة أتباعه وقيامه في الحق وعلمه وعمله، ثم وقع بدمشق خبط كثير وتشويش بسبب غيبة نائب السلطنة، وطلب القاضي جماعة من أصحاب الشيخ وعزر بعضهم ثم اتفق إن الشيخ

---

69 . نفسه. 270/14.

70 . دار الحديث الأشرفية في مدينة دمشق، اشترى الملك الأشرف مظفر الدين من ملوك الدولة الأيوبية تلك الدار وبناها دارًا للحديث، مع سكن للشيخ المدرس بها، وافتتحت سنة 630 هـ.

71 . الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله. 1419هـ. 1998م. *تذكرة الحفاظ*. د.ط. 4/ 193.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

جمال الدين المزي الحافظ قرأ فصلاً بالرد على الجهمية من كتاب أفعال العباد للبخاري تحت قبة النسر بعد قراءة ميعاد البخاري بسبب الاستسقاء، فغضب بعض الفقهاء الحاضرين وشكاه إلى القاضي الشافعي ابن صصري، وكان عدو الشيخ فسجن المزي، فبلغ الشيخ تقي الدين فتألم لذلك وذهب إلى السجن فأخرجه منه بنفسه، وراح إلى القصر فوجد القاضي هنالك، فتقاولا بسبب الشيخ جمال الدين المزي، فحلف ابن صصري لا بد أن يعيده إلى السجن وإلا عزل نفسه فأمر النائب بإعادته تطييباً لقلب القاضي فحبسه عنده في القوصية أياماً ثم أطلقه، ولما قدِم نائب السلطنة ذكر له الشيخ تقي الدين ما جرى في حقه وحق أصحابه في غيبته، فتألم النائب لذلك ونادى في البلد أن لا يتكلم أحد في العقائد، ومن عاد إلى تلك حلّ ماله ودمه ورتبت داره وحانوته، فسكنت الأمور"[72]. وهكذا فكل من كان له علاقة بابن تيمية كان محل تهمة ولو قال أنه أشعري! وهذا وجه ملحظ الإمام صدر الدين المالكي،ولذا لما وقع ما وقع بين إبراهيم بن محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية وبين ابن كثير منازعة في التدريس، فقال له ابن كثير: أنت تكرهني لأنني أشعري، فقال له نجل ابن القيم: لو كان من رأسك إلى قدمك شعر ما صدقك الناس في قولك إنك أشعري وشيخك ابن تيمية[73]. وابن كثير قد صرح بعامة كتبه ولا خلاف في ذلك عند أهل العلم أنه على مذهب السلف في المعتقد، كما أبان ذلك في مقدمة كتابه "البداية والنهاية" عن علو الله على عرشه وإثبات صفة العلو والفوقية لله؛لا بل أنه خالف أصول الأشاعرة وردهم في كثير من المواضع محل الخلاف بين الفريقين.وأقف هنا وقفة طويلة للتحدث عن هذه المسألة، ولربط بين الموضعين، لابد من ذكر عقيدة شيخ الإسلام ابن تيمية وعقيدة الحافظ ابن كثير؛ لاسيما في باب الصفات وكلامهما فيها.

---

72. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل. 1408 هـ 1988م. *البداية والنهاية*. 42/14.

73. ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد العسقلاني ت 852هـ. د.ت . *الدرر الكامنة*. 1/ 65.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

أولاً عقيدة ابن تيمية وأقواله في آيات الصفات:

كلام ابن تيمية في صفة الاستواء:

يقول رحمه الله: "والله تعالى استواء على عرشه حقيقة وللعبد استواء على الفلك حقيقة؛ وليس استواء الخالق كاستواء المخلوقين؛ فإن الله لا يفتقر إلى شيء ولا يحتاج إلى شيء؛ بل هو الغني عن كل شيء. والله تعالى يحمل العرش وحملته بقدرته ويمسك السموات والأرض أن تزولا. فمن ظن أن قول الأئمة: إن الله مستوٍ على عرشه حقيقة يقتضي أن يكون استواؤه مثل استواء العبد على الفلك والأنعام لزمه أن يكون قولهم: إن الله له علم حقيقة وسمع حقيقة وبصر حقيقة وكلام حقيقة يقتضي أن يكون علمه وسمعه وبصره وكلامه مثل المخلوقين وسمعهم وبصرهم وكلامهم"[74].

كلامه في صفة النزول: وفي هذه الصفة أيضاً سلك ابن تيمية نفس المسلك مع باقي الصفات فقال: "وكذلك إذا قال: كيف ينزل ربنا إلى السماء الدنيا ؟ قيل له: كيف هو؟ فإذا قال: لا أعلم كيفيته قيل له: ونحن لا نعلم كيفية نزوله إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف وهو فرع له وتابع له؛ فكيف تطالبني بالعلم بكيفية سمعه وبصره وتكليمه واستوائه ونزوله وأنت لا تعلم كيفية ذاته وإذا كنت تقر بأن له حقيقة ثابتة في نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال لا يماثلها شيء فسمعه وبصره وكلامه ونزوله واستواؤه ثابت في نفس الأمر وهو متصف بصفات الكمال التي لا يشابهه فيها سمع المخلوقين وبصرهم وكلامهم ونزولهم واستواؤهم"[75].

---

74. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني ت 728هـ. 1426 هـ2005 م. *مجموع الفتاوى*. المحقق أنور الباز. عامر الجزار.الناشر: دار الوفاء.د.ط. 5 /199 . بتصرف.

75. نفسه. 3/ 25، 26.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

وهذا الذي عليه ابن تيمية هو ما وافق أقوال علماء السلف قديماً، وأستشهد تأييداً لهذا، بكلام الإمام مالك بن أنس – رحمه الله- لما جاءه رجل يسأله عن صفة استواء الله – تبارك وتعالى- فجاء جواب الإمام:" الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"[76].

ثانياً عقيدة الحافظ ابن كثير في الصفات:

بعد ما ذكرنا شيئاً من عقيدة ابن تيمية فيما ذُكر من بعض الصفات وهي عقيدة السلف كما سلف، فإنا لانجد أي اختلاف بين ما يعتقده ابن تيمية وابن كثير في هذا المسائل. فعلى سبيل المثال في صفة الاستواء – ويأتي الكلام كله في المبحث الثالث من الفصل الثالث عند الكلام على منهج ابن كثير السنني في أبواب العقيدة- وهي قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾[77] قال الحافظ ابن كثير في ذلك: وأما قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً، ليس هذا موضع بسطها، وإنما يُسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك، والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل.

والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[78] بل الأمر كما قال الأئمة – منهم نُعَيْم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري -: "من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر". وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله – تعالى – ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي

---

76. الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان. *تذكرة الحفاظ*. دراسة وتحقيق: زكريا عميرات.الناشر: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان. 1419هـ.1998م. ط1. 155/1.

77. القرآن الكريم. سورة الأعراف.7: 54.

78 . القرآن الكريم. سورة الشورى.42: 11 .

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

يليق بجلال الله – تعالى- ونفى عن الله – تعالى – النقائص، فقد سلك سبيل الهدى[79]. وإذا تأملنا كلام الإمامين ابن تيمية وابن كثير وجدنا التطابق التام والتوافق في الكلام على صفات الله – تعالى – واتفاقهما على وجوب إمرارها دون خوض فيها ولاتأويل ولا تعطيل ولا تحريف، ودحض ما خالف هذا ورده، واستدلالهما بكلام أئمة المسلمين كمالك وأحمد والبخاري ومسلم والخزاعي، فصفات الله – تعالى – ثابتة له بما يليق بجلاله ويختص به تعالى.

ومعلوم أن من أشهر مؤلفات ابن كثير هو " تفسيره " وقد سطر فيه معتقده واضحاً جلياً، وله رسالة باسم " الاعتقاد" أبان فيها عن معتقده فقال ما لفظه:" فإذا نطق الكتاب العزيز ووردت الأخبار الصحيحة بإثبات السمع والبصر والعين والوجه والعلم والقدرة والعظمة والمشيئة والإرادة والقول والكلام والرضا والسخط والحب والبغض والفرح والضحك، وجب اعتقاد حقيقة ذلك من غير تشبيه من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين، والانتهاء إلى ما قاله سبحانه وتعالى ورسوله – صلى الله عليه وسلم- من غير إضافة، ولا زيادة عليه، ولا تكييف، ولا تشبيه، ولا تحريف، ولا تبديل، ولا تغيير، ولا إزالة لفظ عما تعرفه العرب وتصرفه عليه، والإمساك عما سوى ذلك"[80]. وهذا كلام صريح في إثباته لصفات الله على الحقيقة، ومنعه من تأويلها، أو تشبيهها بصفات خلقه. ولم يفرق بين صفة وأخرى[81].

وقد ساق ابن كثير في تاريخه كثيراً من وقائع شيخ الإسلام ابن تيمية مع مخالفيه، ومن أشهر ذلك: المناظرات التي جرت بينه وبينهم في عقيدته المسماة بـ " الواسطية " كمؤشر على تأييده في مناظراته لمخالفيه،

---

79. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل. 1420هـ 1999 م . *تفسير القرآن العظيم* 3/ 426،427. الغنيمي، عبد الآخر 1415هـ 1994م. *عقيدة الحافظ ابن كثير بين التفويض والتأويل*. الدمام: دار الأخلاء للنشر والتوزيع. د.ط. ص 76.

80. معطي، رضا بن نعسان. *علاقة الإثبات والتفويض بصفات رب العالمين*. 1416 هـ 1995م تقديم الشيخ العلامة عبدالعزيز بن باز. دار الهجرة للنشر والتوزيع.ط6. ص82.

81. الجاسم، فيصل بن قزار. *الأشاعرة في ميزان أهل السنة*. 1428هـ 2007م. الكويت: الناشر المبرة الخيرية لعلوم القرآن والسنة.د.ط. ص634.636.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

وقد أطال ابن كثير في ذكر هذه الأحداث منتصراً لشيخه ابن تيمية، ومعلوم ما في " العقيدة الواسطية" مما يخالف مذهب المخالفين في الصفات والقدر، والقرآن، والإيمان، والنبوات، والكرامات، وغير ذلك من أبواب الاعتقاد.

وهكذا يتضح لنا موقف الحافظ ابن كثير من هذه القضية ومواقفه المساندة لشيخه الإمام ابن تيمية لاسيما في مسائل الاعتقاد، والذهاب إلى أنه أشعري لحادثة قبوله الوظيفة لا يسلم، فهو يعلم أنه لا يلزم صاحب الوقف هذا الشرط في الوقف؛ بل إن ابن كثير نشر عقيدة السلف وخالف الأشاعرة في دروسه، وعامة تلامذته من السلفية، وأن مرد الكلام كله أن صاحب الكلام أعني السبكي، كان عدواً لدوداً لشيخ الإسلام ابن تيمية، وهو أحد أهم الأسباب في سجن ابن تيمية، وكان ذو نفوذ وقوة عند حاكم البلاد، فسطر في كتابه ما أراد كونه أشعرياً، وكان الكل من طلاب شيخ الإسلام كابن كثير وابن القيم وغيرهم، يدركون أن مواجهة السبكي تعني سجن القلعة، وحدث هذا بالفعل للإمام ابن القيم فقد سجن هو الآخر، ولكن ابن كثير اتقى وابتعد عن مواجهة السبكي، ولكنه أوذي بسبب نصرته وتعلقه بشيخه ابن تيمية وعقيدته، وهذا مسطور في كتب التاريخ، فقد امتحن وسجن بسبب ذلك، وظل يقتفي أثر شيخه ابن تيمية، ولم يحد عنه. وظل على هذا التعظيم له حتى توفي ودفن بجواره.

وعودةً إلى علاقة ابن كثير مع شيخه المزي، فقد كانت له مواقف مؤيدة عدة له، إذ أنه لازمه – كما أخبر هو بنفسه عشرين سنة وزوجه من ابنته زينب– فينقل عنه أقواله وآراؤه في الأحاديث المفسرة لكتاب الله – تعالى – من حيث الصحة والضعف، وبيان أحوال الرواة وأسماؤهم بنحو ما ذكر في تفسيره قال: ورواه ابن جرير عن نصر بن علي الجهضمي، كما تقدم. ورواه ابن عدي من رواية يحيى بن عمرو بن مالك النُّكْريّ عن أبيه، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: كان للنبي – صلى الله عليه وسلم – كاتب يسمى السجل

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

وهو قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[82] قال: كما يطوى السجل الكتاب، كذلك نطوي السماء، ثم قال: وهو غير محفوظ. وقال الخطيب البغدادي في تاريخه: أنبأنا أبو بكر البَرْقَاني، أنبأنا محمد بن محمد بن يعقوب الحجاجي، أنبأنا أحمد بن الحسن الكرخي، أن حمدان بن سعيد حدثهم، عن عبد الله بن نمير، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر، قال: السجلّ : كاتب للنبي – صلى الله عليه وسلم – وهذا منكر جدًا من حديث نافع عن ابن عمر، لا يصح أصلاً، وكذلك ما تقدم عن ابن عباس، من رواية أبي داود وغيره، لا يصح أيضًا. وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه – وإن كان في سنن أبي داود — منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المزّي، فَسَح الله في عمره، ونَسَأ في أجله، وختم له بصالح عمله، وقد أفردت لهذا الحديث جزءًا على حِدة، ولله الحمد. وقد تصدى الإمام أبو جعفر بن جرير للإنكار على هذا الحديث، ورده أتم رد، وقال: لا يُعرف في الصحابة أحد اسمه السجِل، وكُتَّاب النبي – صلى الله عليه وسلم– معروفون، وليس فيهم أحد اسمه السجل، وصَدَق رحمه الله في ذلك، وهو من أقوى الأدلة على نَكَارة هذا الحديث. وأما مَنْ ذكر في أسماء الصحابة هذا، فإنما اعتمد على هذا الحديث لا على غيره، والله أعلم. والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة .[83]

والمزي إمام عَلَمٌ في علم الرجال وأحوال الرواة، كما قال الحافظ الذهبي: "وأما معرفة الرجال فهو حامل لوائها والقائم بأعبائها لم تر العيون مثله، عمل كتاب "تهذيب الكمال" في مائتي جزء "وخمسين جزءًا" وعمل كتاب "الأطراف" في بضعة وثمانين جزءًا، وخرج لنفسه وأملى مجالس وأوضح مشكلات ومعضلات ما سبق إليها في علم الحديث ورجاله، وولي المشيخة بأماكن منها الدار الأشرفية. وعن عقيدته يقول الذهبي: ترافق هو وابن تيمية كثيرًا في سماع الحديث وفي النظر في العلم وكان يقرر طريقة السلف في السنة ويعضد ذلك بمباحث نظرية وقواعد كلامية وجرى بيننا مجادلات ومعارضات في ذلك تركها أسلم وأولى. ومع ذلك فله

---

82. القرآن الكريم. سورة الأنبياء. 21: 104.

83. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل. 1420هـ. 1999 م. *تفسير القرآن العظيم*. 383/5.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

عمل كثير في المعقول، وما وراء ذلك بحمد الله إلا حسن إسلام وحسبة لله، مع أني لم أعلمه ألف في ذلك شيئًا. وقد لزم في وقت صحبة العفيف التلمساني فلما تبين له انحلاله واتحاده تبرأ منه وحط عليه[84]. وعند قوله تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[85] قال ابن كثير ناقلاً عن المزي في ضبط الرواة وأسمائهم: " وقد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية وأقوالهم على نحو من بضعة عشر قولاً. وقال البخاري: قال يحيى: الظاهر على كل شيء علمًا والباطن على كل شيء علمًا، قال شيخنا الحافظ المزيّ : يحيى هذا هو بن زياد الفراء، له كتاب سماه : "معاني القرآن"[86].

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

84. الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين. 1419هـ. 1998م. *تذكرة الحفاظ*. 4/ 193، 194 بتصرف.

85. القرآن الكريم. سورة الحديد.57: 3.

86. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت 774هـ. 1420هـ. 1999 م. *تفسير القرآن العظيم*. 6/7.